الباب الثانى

اليونان

لليونان من عظيم الأثر فى تأسيس مدنية العالم وحضارته مالا تدعيه أمة من الأمم . ولا عجب ، فقد خطوا بالتربية النظرية والعملية فى العصور القديمة خطا واسعة ، ووصلوا بها إذ ذاك إلى غاية قصُرت عنها هم الشعوب المعاصرة . وقد ظل العالم منذ أزمانهم وهو يهتدى بهديهم و يستنير بنورهم ، و يرجع إلى مطالعة آرائهم والبحث فى نظمهم كلما رام ارتقاءً أو ابتغى كمالاً .

العوامل التى ساعدت على نهضة اليونان وارتقائهم

كان لكل من البيئتين الطبعية والاجتماعيـة آثار ظاهرة فى نهضة اليونان واتجاه همتهم إلى تأسيس مدنيتهم وبناء حضارتهم ، وتكوين تلك المبادئ العالية والغايات السامية التى رفعت من شأنهم ، ونهضت بهم فى كل أطوار الحياة .

فالجو المعتدل القليل التغير غالبًا هيأ لهم أسباب السعادة النفسية ، وغرس فيهم الرزانة والثبات . والهواء البحرى المنعش الذى تمتعت به البلاد أثار نشاطهم ، وأيقظ عقولهم ، وبعث نفوسهم إلى العمل . وسواحلهم الممتدة ذوات الخُلُج الكثيرة ، وكذلك مرافئهم التى يخطئها العد ، ساعدت جميعها على إعداد الأهلين لفن الملاحة ، ونهضتهم فى التجارة . ومما زاد فى جدهم توافر هذه العوامل بوجه خاص فى شواطئهم الشرقية حيث كانت فينيقية ومصر وغيرهما من الشعوب الشرقية ذوات المدنية العريقة والحضارة الواسعة تتردد هناك بمتاجرها ، وتبث فى أهل البلاد الميل إلى الفنون ، والرغبة فى توسيع نطاق الحضارة .

هكذا كانت طبائع البلاد وأحوال الاجتماع متضافرة على إيقاظ الفكر اليونانى ، واستمالته إلى الانتفاع بحضارة الأمم والشعوب المجاورة فى وضع النظم وسن القوانين .

مجمل تاريخ اليونان

لم تكن بلاد اليونان القديمة أو إغْرِيقِيَةُ الأصلية مملكة واحدة ، ولكن كانت جملة من ولايات مستقلة تقع جميعها فى شبه الجزيرة الممتد بالجنوب الشرقى من أوربا ، وفى الجزائر الكثيرة المنتشرة حوله . ولم يقع فى تاريخ هذه البلاد القديمة أن جمعتها حكومة واحدة ، أو سادها نظام واحد ، أو أَلَّفَتْ بين قلوبهم معاهدة أو محالفة ، اللهم إلَّا فى ولايات قليلة و إلى أمد قصير . ذلك أن طبيعة البلاد كانت عائقة عن كل التئام ، وداعية إلى التفرق والانقسام . فمياه البحر التى تغمر سواحلها وتملأ خُلُجَها ومرافئها ، وسلاسل الجبال الشاهقة التى تسرى فى أحشائها وتمتد فى طولها وعرضها ، فصلت الأقاليم والمدن الرئيسة بعضها عن بعض ، وجعلت سبل الاتصال بينها غاية فى الصعوبة ، وحالت لذلك دون اشتراكها فى الفكر أو تماثلها فى العواطف . ومن ثم اتسعت مسافة الخلف بين السكان فى الأخلاق والعادات والحكومات ونظم الاجتماع ، بل فى اللهجات وطرائق التفكير والتعبير . ولم يظهر فى هذه الولايات وقتا ما من دلائل الارتباط وشواهد الوفاق ، إلَّا ما كان فى أحوال نادرة استثنائية ، حينما كانت الحاجة تدعوهم إلى منازلة عدو مشترك بينهم كالشعب الفارسى ، وحين كانوا يجتمعون فى أوقات معينة ليشهدوا الألعاب الأولمبية ، وغيرها من الألعاب الأهلية العامة .

وأهم الولايات اليونانية وأشهرها ثنتان . هما إسبرطة وأثينا . ولما كانتا تمثلان أطوار التربية المختلفة فى البلاد اليونانية أحسن تمثيل ، رأينا أن نقتصر فى الكلام عليهما رغبة فى الايجاز .

على أن الأعمال المجيدة التى قامت بها البلاد اليونانية ، والتى كانت أساسًا لتوسيع حضارة العالم ، وأصلاً للرقى الحديث فى التربية ، لم تنشأ إلَّا فى أثينا وحدها بعد النصف الأول من القرن الخامس قبل المسيح .

أما إسبرطة فى جميع أدوار تاريخها ، وكذلك أثينا قبل التاريخ المذكور ، فلم ترتق فيهما التربية كثيراً عما كانت عليه فى البلاد الشرقية . ولا يعنينا هذا النوع من التربية هنا إلَّا بقدر ما نستعين به على تفهم نشأة التربية وتدرجها فى هذه البلاد .

بلاد اليونان قبل العصر التاريخى

لا يعرف من تاريخ اليونان فى مبدأ تكوينهم إلاَّ النزر اليسير . وجل ما وصل إلينا من أخبارهم لا يوثق به ولا يركن إليه . فهى أساطير موضوعة أملاها الوهم ، وخرافات مستملحة غلب فيها الخيال على الحقيقة . ويرجع كثير من هذه الأخبار الى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر قبل المسيح . وقد اقتبس المؤرخون كثيراً منها من قصائد « هُومِيرُوس » الشاعر الاغريقى القديم ، ولا سيما قصيدتى الإلياذة والأوديسيا فانه وصف فيهما الحياة الإغريقية القديمة ، وبين فيهما كثيراً من العادات القومية والنظم الاجتماعية التى سادت البلاد فى زمنه وقبل زمنه .

أما الأخبار الموثوق بها فيرجع تاريخها إلى أول فوز سُجِّل للاعبين فى الحفلات الأولمبية سنة ٧٧٦ ق . م . وفى هذا العصر التاريخى كانت إسبرطة أسبق الولايات إلى تأسيس مجدها وبناء شهرتها بما وضعته لنفسها من نظم التربية الحربية التى اضطرتها اليها بيئتها الاجتماعية وشئونها العدائية . وذلك أن الدُّورِيِّين لمـَّا أتوا بلوپونيز فى أوائل القرن الثانى عشر ، أغاروا على سكانها الأصليين ، وأخذوا يطاردونهم إلى خارج البلاد ، فسالمهم فريق وحاربهم آخر . أما الفريق الأول فعاشوا معهم فى أمن ودعة . وأما الفريق الثانى فقوتلوا حتى دارت الدائرة عليهم ، فاستذلهم الفاتحون واتخذوهم عبيداً وخدماً يحرثون لهم الأرض ويخدمونهم صاغرين . وقد كان الدوريون معسكرين أثناء حروبهم هذه فى بناء شيدوه على أكمة مشرفة على نهر إفْرُوتَاسْ ، وقد زادوا فى هذا البناء حتى أصبح على مر الأيام مدينة واسعـة سموها إسبرطة ، فاتخذوها موطناً واستولوا على ما جاورها من قرى وأراض خصبة ، وأكرهوا السكان الأصليين على النزول بتلك الأراضى الجبلية المقفرة . ومن لم يذعن لذلك منهم سيم الخسف والهوان وأصبح فى عداد العبيد الأذلاء .

هكذا تكوّن الإسبرطيون ، وهكذا استطاعوا بشجاعتهم وإقدامهم على قلة عددهم أن يستذلوا أعداءهم وخصومهم الكثيرين . كانوا لا يزيدون على تسعة آلاف

ينازلون من أعدائهم مائتين وخمسين ألفاً . ولما رأوا أنفسهم فئة قليلة تساكن من الأعداء عدداً وفيراً ، وكانوا فى كل وقت يفاجَئُون بثورات وغارات يشنها عليهم الأهلون والأقوام النازلون بجوارهم ، اضطروا أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحمل السلاح ، وأن يضعوا لتربية أولادهم وشبانهم نظماً حربية تنتج لهم شعباً محباً للقتال والكفاح .

كان بينهم فى ذلك الوقت رجل سياسى خطير يدعى « ليكُورْغُوس » قد حاز ثقتهم ومحبتهم لحزمه وحكمته واقتداره ، فعهدوا إليه فى سنّ القوانين ووضع النظم التى تكفل لهم السعادة وتقيهم شر الفتن . فنهض بالأمر وسن لهم من الخطط السياسية والاجتماعية ما عُدَّ فخراً وقوة للبلاد . وكان ذلك على الأرجح فى نصف القرن التاسع . وقد بقيت خطة التربية التى وضعها هذا السياسى لهم مسلوكة محببة إلى القوم إلى أن ضاع استقلال الولايات الاغريقية :

نعم قد انحطت هذه الخطة كثيراً فى آخر أمرها . ولكنها فى أوائل عهدها زادت من قوة الإسبرطيين ، ورقت من شأن مدينتهم ، ولذلك لم ينتصف القرن السابع حتى كانت إسبرطة أولى الولايات وأنجحها فى بلاد اليونان .

نشأة أثينا وارتقاؤها

بينا كانت إسبرطة مشغولة بنظمها الحربية ، كانت أثينا منهمكة فى إصلاح نظمها السياسية ، ساعية فى تمكين حضارتها ، باذلة جهدها فى ترقية الآدب والعلوم .

كانت حكومتها فى أول الأمر ملكية يستقل بأمورها الملك وحده ، فحسده الأشراف وسمت نفوسهم إلى مشاركته فى سلطانه ، فاغتصبوا منه بعض حقوقه أولاً ، ثم استمروا فى الاغتصاب حتى آل الحكم فى آخر الأمر اليهم واستحالت الحكومة وانتقلت من حال إلى حال ، فأصبحت حكومة أشراف يسوسها الأعيان والشرفاء . ولكن هؤلاء لم يلبثوا أن استبدوا بالرعية وعبثوا بمصالحها ، فثار الشعب عليهم وتولى زعامته رجال

من أهل الحكمة والحزم، فانتزعوا السلطة من أيدى الأشراف تدريجًا، وجعلوها حقًا شائعًا بين جميع السكان. وقد كان تمام ذلك على يد البطل العظيم « إكْلِسْثِينِس » فإليه يرجع الفضل فى جعل حكومة أثينا حكومة ديمقراطية محضة، ينعم فيها الغنى والفقير، ويستوى فيها الوضيع وذو النسب الرفيع.

ولما رأت أثينا ما هى فيه من رقى وحضارة وقوة نظام، وأحست أنها فى كل ذلك تفوق أختها إسبرطة، أخذت تتلمس الفرص التى تساعدها على إثبات هذا الفضل وإذاعته بين الناس، فسنحت لها الفرصة فى الحروب الفارسية التى اشتعلت نيرانها سنة ٥٠٠ قبل المسيح، فنهضت اليها وأبلت فيها البلاء الحسن، وأظهرت من الحزم والقوة فى الحملات الثلاث التى حملها الفرس على اليونان ما سجل لها الفخار، وجعل لها المكانة الأولى فى حماية الوطن والدفاع عن كل إقليم فيه. ولما رأى اليونان كفايتها ومقدرتها العظيمة التفوا حولها، وتحالفوا جميعًا ضد الفرس، وسلموها قيادة الجيوش البرية والبحرية، ونقلوا اليها الخزانة العامة، فأصبحت بذلك صاحبة السلطان فى البلاد، وبيدها القوة الحربية والقوة المالية. وما زال شأنها يعظم حتى نزل أحلافها من منازل الأنداد المحالفين إلى منازل الأتباع الخاضعين.

عصر بركليس

بلغت أثينا غاية مجدها ونهاية حضارتها فى عصر لم يدم أكثر من نصف قرن (سنة ٤٨٠ – ٤٣٠ ق. م). ويعرف هذا العصر بعصر النور والعرفان، أو بالعصر البِرِكْلِيسى، نسبة إلى بطله العظيم « بِرِكْليس »، ذلك السياسى الكبير الذى قاد حركة الأعمال فى أثينا مدته

رأى هذا القائد أن يظهر للعالم عظمة أثينا ومجدها، وأن يلبسها حلة من الجمال والبهاء تلائم منزلتها العالية، فأقام بها المبانى الشاهقة والمعابد العظيمة والهيا كل الضخمة وزينها جميعها بأنواع النقش والتصوير، حتى أصبحت المدينة صورة مفرغة فى قالب من

الجمال ، ورأى فوق ذلك أن يُعلى فيها منار الآداب والفنون ، فشجع الأدباء والعلماء والفلاسفة حتى امتلأت بهم المدينة ، وأصبحت مهبط الحكمة ومبعث النور والعرفان ، فظهر فى عصره « هِيرُودُتسْ » و« توسيديديز » المؤرخان الشهيران ، و« سوفوكليز » و« يوريبيديز » و« أريستوفانس » ، فرسان البلاغة وفحول البيان ، و« أنكساغورس » « وسقراط » ، صاحبا الصيت الذائع فى الحكمة والفلسفة .

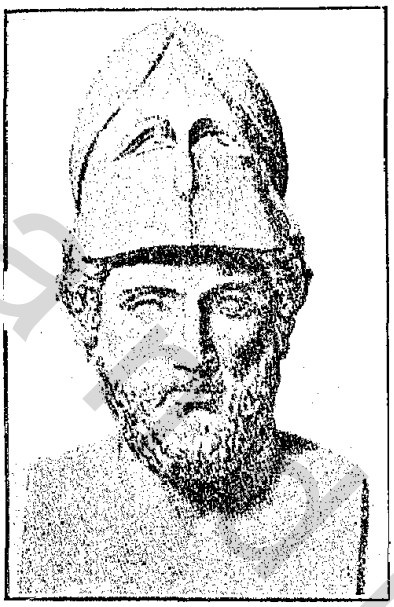

بِرِكْليس

كذلك زهت فى هذا العصر شئون التجارة والصناعة ، ووصلت نظم السياسة والاجتماع فيه إلى درجة بالغة حد الكمال .

حروب بلوبونيز وعظمة اسبرطة

بعد انتهاء عصر بركليس وقعت بلاد اليونان فى حروب داخلية ، وعداوات أهلية ، واشتبكت المدينتان أثينا وإسبرطة فى معارك عنيفة ، تُعرف بحروب بلوپونيز ، نسبة إلى شبه جزيرة بلوپونيز ببلاد الإغريق .

سَعَّر هذه النار أمور عدة ، منها دسائس الفرس للتفريق بين اليونانيين . ومنها المنافسة الشديدة بين إسبرطة وأثينا وحقد الأولى على الثانية لتفوقها عليها فى عالم

السياسة والأدب . ومنها استبداد أثينا بحليفاتها ، ومعاملتها إياهن معاملة السيد لمولاه .

ابتدأ القتال فكانت أثينا منصورة مُظَفَّرَةً موفقة فى جميع مواقفها . إلاّ أن الأثرة وحب الذات تمكنا من نفوس رجالها وقوادها ، فتبدلت الأحوال وتغير وجه القتال ، فأعرض عنها النصر وغادرها بعد أن حالفها زمنًا ، وثبتت إسبرطة فى جميع مواطن القتال ثبات المستبسل تنتزع النصر من قرينتها انتزاعًا ، فتم لها الفوز وقبضت بكفها على صولجان البأس والقوة ، وبذلك أصبحت سيدة البلاد الإغريقية مرة ثانية .

عظمة طيبة وانحدارها

بينما كانت إسبرطة مدلة بعزها ومجدها وامتداد سلطانها ، نهض لها الطيبيون سنة ٣٧٩ قبل المسيح ، فرفضوا حكومتها وأبوا الإذعان لما شرعته لهم من القوانين ، واشتبكوا معها فى قتال عنيف خرجوا منه منصورين مظفرين . ثم دخلوا البلاد الإسبرطية فنهبوا وسلبوا وأكثروا من التدمير والتخريب ، إلاّ أنهم بعد موت زعيمهم « إيپامِنُنْداس » سنة ٣٦٢ قبل المسيح ، لم يستطيعوا الاحتفاظ بقوتهم طويلاً ، فنزلوا من سماء مجدهم وضعف سلطانهم كثيراً ، وكأن الضربة التى أصيبت بها المملكة الإسبرطية كانت قاضية ، فلم تستطع بعدها النهوض ، ولم تستعد ما كان لها من قوة وسلطان .

الفتح المقدونى

مما تقدم نرى أن المدن الاغريقية وصلت إلى حال من الضعف لا تستطيع معها غزواً ولا فتحًا ، ولا تطمع واحدة منهـا فى بسط نفوذها ومدّ سلطانها على البلاد الاغريقية جميعًا . ولذلك سادت البلاد سكينة عامة ، وشملها هدوء مطلق وإن لم يدم ذلك كثيراً . وقد كانت أثينا فى هذه الفترة فترة الهدوء والسكينة أحزم الولايات الاغريقية ، وأبصرها بطرق الخير والنجاح ، فانها اتجهت إلى إصلاح شئونها التجارية والصناعية والعلمية والأدبية ، فنمت ثروتها وكثرت علومها وفنونها ، واتسعت فيها الحضارة والمدنية .

وبينما البلاد الاغريقية فى أمن ودعة ، إذا هى تجاه عدو أجنبى يشن عليها الغارة ويناصبها العداء ، ذلك هو فيليب المقدونى ملك مقدونية . فهب الإغريق لملاقاته ، إلا أنه بقوته ودسائسه استطاع أن يفرق جموعهم ويهزم جيوشهم فى واقعة « قِيرُونَهْ » سنة ٣٣٨ ق . م ، فدانت له الرقاب وخضعت لحكمه البلاد . وبذلك أصبحت مقدونية وإغريقية كبلد واحد ، له تاريخ واحد ، وسياسة واحدة . ولما استقامت لهذا الفاتح جميع الأمور فى إغريقية ، ألّف من رجالها جيشًا قويًا وسار به لغزو البلاد الفارسية ، إلا أن المنية عاجلته قبل أن يظفر ببغيته ، فقام بالأمر بعده ابنه الاسكندر الأكبر ، فاحتفظ ببلاد الإغريق وغزا بلاد الشرق ، ففاز وانتصر وفتح البلدان والأقاليم .

الحكم الرومى

بقيت بلاد الإغريق خاضعة لجارتها الشمالية « مقدونية » إلى أن ظهرت تلك القوة العالمية العظيمة ، قوة الدولة الرومية . حينئذ شُغِل المقدونيون بمنازلة الروم الذين انصبوا عليهم من كل جانب ، ولما ضعف أمرهم ولم تُجْدِهم المقاومة ، تركوا القتال وخضعوا لهذه القوة الجديدة . وكان الناس يرون أولاً أن فى هزيمة المقدونيين تحريراً للبلاد الإغريقية ، وخلاصًا لها من الحكم الأجنبى ، إلاّ أنهم ما لبثوا أن خاب ظنهم ، إذ رأوا رومة تحول همها إلى هذه البلاد البائسة ، فغزت أرضها ودخلتها دخول الفاتح المنتصر ، وفى سنة ١٤٦ ق . م أصبحت البلاد الإغريقية ولاية رومية .

خضع الإغريق للمقدونيين ثم للروم ، فكان ذلك آخر عهد لهم بالحرية والاستقلال السياسيين ، إلا أن عظمتهم العلمية لم تبتدىء إلا منذ ذلك الحين . فقد وصلوا فى هذه العصور الأخيرة عصور الانحلال السياسى الى أقصى ما كان مستطاعًا لهم من التبريز فى العلوم والفنون وضروب الفلسفة .

عصور التربية اليونانية

تنقسم هذه العصور الى قسمين أصليين ، هما عصور التربية القديمة ، وعصور التربية الحديثة . ويُعد العصر البِركْليسى أو منتصف القرن الخامس قبل المسيح حداً فاصلاً بين القسمين . وينقسم كل من هذين القسمين الأصليين إلى أقسام أخرى فرعيـة ، فالأول يشمل العصر الهوميرى والعصر التاريخى إلى منتصف القرن الخامس . والثانى يشمل عصر الانتقال والتحول فى التربية والآراء الدينية والخلقية . ثم عصر الانحلال السياسى الذى يبتدئ من الفتح المقدونى فى أواخر القرن الرابع قبل المسيح . ويعد هذا العصر الأخير أزهى عصور اليونان وأحفلها بالعلوم والفنون والآداب .

التربية اليونانية فى العصر الهوميرى

أقدم ما يعرف من أحوال التربية والاجتماع فى هذه البلاد ، مقتبس من أشعار هوميروس الشاعر الإغريقى القديم . فقد وُصِفَتْ فى قصائده مذاهب القوم ومشاربهم وعاداتهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم . وشعره وإن كان مملوءًا بالخرافات وآثار التخيل المحض ، يصور لنا الحياة الإغريقية القديمة تصويراً مجملاً ، ويَقِفُنا على ما كانت عليه التربية فى تلك الأزمان البعيدة . والناظر فى هذا الشعر القديم يرى أن الحياة الإغريقية القديمة كانت أشبه شىء بحياة الإنسان فى عصوره الأولى ، غاية فى البساطة وعدم الكلفة ، فقد كان قدامى الإغريق أو « الهلانيون » كما يسميهم رجال التاريخ ، يعيشون عيشة العشائر ، لكل عشيرة نظام خاص ورئيس مطاع الأمر نافذ الحكم فيها . وكان لكل جملة من العشائر ملك يدير أمورهم العامة ، ويتخذ من رؤسائهم أعوانًا وأنصاراً يجمعهُ وإياهم مجلس يدعى مجلس الشيوخ ، فيستشيرهم ويستنير بآرائهم . وكان لكل من وُلِدَ حراً من رؤساء العشائر أن يحضر هذا المجلس ، فيفصح عن آرائه ويدلى بحجته وبرهانه بكل حرية مستطاعة . ولم تكن الوراثة عاملاً قوياً فى نيل الملك وتبوء العرش ،

وإنما كان المرء يؤهل لهذا المنصب الرفيع بفضل ما أوتيه من قوة الجسم وسلامة العقل. على أن منصب الملك فى تلك الأيام لم يكن مهيبًا ، ولم يبد على من تولاه شيء من جلال الإمارة ولا أبهة السلطان ؛ فقد كان الملك منهم يرعَى الأغنام ويحرث الأرض ويعمل بيديه فى الصناعات ، ويختلط بالناس اختلاطًا لا احتشام فيه ، وكثيراً ما كان أولو القوة من رعيته يُغيرون عليه فى بيته ويغتصبون ملكه ؛ وإذا تغيب استباحوا ذماره وتزوجوا نساءه طمعًا فى انتزاع سلطانه .

لهذا لم يكن عجبًا ان كانت تربية اليونان فى هذا العصر تشبه تربية الانسان فى عصوره الأولى ؛ فلا مدارس ولا معاهد علمية ، ولا معلمين يحترفون صناعة التعليم . ولم يكن لديهم شيء مقصود من التعليم الفنى أو العلمى أو الأدبى ؛ وانما كانت التربية عندهم محض أنواع من التمرين على شئون الحياة العملية . نعم سمعنا أنه كانت هناك مناهج مطولة فى الأعمال الحربية والتمرينات العسكرية ، يؤخذ بها بعضٌ من نبلاء الشبان . وسمعنا أن « أَكِّليز » دَرَسَ الموسيقى وصناعة الطب وفنون الفصاحة ؛ إلاَّ أن هذا التعليم لم يكن أكثر من تمرينات عملية يعتمد فيها على التقليد والمحاكاة ، ولم تكن له صبغة التعليم الفنى الذى عرف عن الاغريق فى عصورهم التالية .

كان الأطفال يَصِلون الى ما يصلون إليه من مراتب التربية بفضل تدخلهم فى الحياة العملية للأسرة والمجتمع ؛ فكان الولد يتعلم من أبويه فى المنزل وسائل المحافظة على الحياة . فيتعلم منهما التماس الأقوات وبناء المساكن وحياكة الملابس ؛ وهذه هى التربية الأولية . أما التربية الراقية فتأتى من محاكاته من يخالطهم ويعاشرهم من الرجال الذين علمتهم التجارب ، ودربتهم صروف الزمان . فإذا لم يكن معه من الرجال الأحياء من يتخذه قدوة صالحة ومثالاً طيبًا ، عمد إلى محاكاة بطل من أبطالهم الخياليين وهم كثيرون ، منهم « إديسْيَسْ » مثال الحكمة وقوة الحيلة « وأَكِّليز » رمز الشجاعة وحب العمل .

كان التقليد وسيلة التعليم وأسلوبَه الفذ ، ولكنه كان تقليداً لشخص بعينه ، لا متابعة

لشيء من الحكم والنصائح المودعة بطون الكتب المقدسة ، كما كانت الحال فى التربية الشرقية . أضف إلى ذلك أنه لم يكن بذلك التقليد الأعمى الذى يساق فيه الانسان من غير تفكير ؛ وانما كان تقليداً بصيراً يُثبت فيه المقلد شخصيته ، ويُدخل على العمل الذى يقلده ما شاء من أنواع الاصلاح والتحسين . ولقد كان هذا التقليد الذى تحاكَى فيه الأبطال لا الحكم والأمثال ، والذى يضئ العقلُ مسالكه وطرائقه ، هو الأصل الذى هيأ للإغريق أسباب السعادة ، وجعلهم يفوقون فى حضارتهم كل من سبقهم من الأمم الغابرة .

كانت مصلحة الجماعة فى هذا العصر أهم أغراض الحياة . وكان كل انسان يرى أنهُ إنما يعيش ويعمل للجماعة لا لذاته ؛ إلا أن شخصية الفرد كانت ظاهرة ماثلة للعيان كما يؤخذ مما أسلفنا فى شأن المحاكاة . وقد كان للعادات والتقاليد القديمة سلطان قوى وأمر مطاع ؛ ولكن بشرط أن ترتاح اليها الفِطرُ السليمة ، وتقبلها العقول الرشيدة . على أنها فوق ذلك كانت عرضة للتهذيب والتعديل على حسب ما يراه الأفراد . فبذلك يُرى أن شخصية الفرد كانت ظاهرة بارزة فى تلك العصور القديمة ، وأن التربية كانت تعمل دائمًا على إنماء هذه الشخصية وتخليص الانسان من الرق والخضوع التام للجماعة .

وكان للتربيـــة فى هذا العصر غرضان ترمى اليهما . أولهما أن ينشأ الطفل حكيما فصيحًا فى المحافل والمجالس . وثانيهما أن يكون شجاعًا مقدامًا فى الغارات والحروب

التربية اليونانية القديمة فى أوائل العصر التاريخى

لما جاء العصر التاريخى وأصبحت وقائع التاريخ وحوادثه قطعية موثوقًا بصحتها ، بطل نظام العشائر الذى كان أساس الاجتماع فى العصر الهوميرى ؛ وحل محله نظام الحكومات المدنية التى ألّفت بين العشائر وجمعتهم تحت راية واحدة ، ونظام واحد . وأصبحت الرابطة بين أفراد المجتمع أنهم يملكون أرضًا فى مدينة واحدة أو إقليم واحد ، لا أنهم من دم واحد وسلالة أسرة واحدة .

أما غرض الحياة فى هذا العصر، فقد كان لخدمة الحكومة ونفع الجماعة كما كان فى العصر الهوميرى، إلا أنه أصبح واضحًا جليًا لا لبس فيه. وصار كل فرد من أفراد الجماعة يرى واجبه فى أن يهب نفسه وجسمه لخدمة حكومته، وأن يبذل ذاته فى سبيل إصلاح الحكومة إذا دعت الضرورة الى ذلك. على أن ذلك لم يفقده شخصيته، ولم يحل بينه وبين العمل لتكميل ذاته وإنماء مواهبه. وجميع هذه المبادىء ظاهرة جلية فى نظامى التربيتين الرئيستين الإسبرطية والأثينية.

التربية الإسبرطية وأغراضها

كانت الأحوال السياسية والاجتماعية فى إسبرطة كما قدمنا تقضى عليها أن تعد أبناءها وشبانها للكفاح والجلاد، وأن تجعل الشجاعة والإقدام وقوة الأجسام وطاعة القانون أسمى أغراض التربية. وقد وضعت للتربية نظماً وأساليب، وراعت فيها أن تكون وسيلة لحفظ كيان الحكومة وشد أزرها. ولذلك لم يكن غريبًا أن تحملت الحكومة نفقاتها، وهيمنت على كل صغيرة وكبيرة فيها. وإنا نريد أن نبسط الكلام هنا بعض البسط، فان التربية الاسبرطية فى جميع أدوارها، تعد أحسن مثال للتربية اليونانية القديمة:

دور الطفولة

تهيمن الحكومة على تربية الأطفال من يوم ولادتهم، فلم تترك الآباء أحراراً فى تربية من يشاءون من أولادهم، بل كان من واجب الأب إذا ولد له ولد أن يحمله إلى دار الندوة، حيث يجتمع رؤساء العشائر وشيوخ المدينة، فيضعه بين أيديهم ليختبروا قوة جسمه ومبلغ تحمله، وليروا رأيهم فيه. فاذا وجدوه قوى الجسم كامل الخَلْق متناسب الأعضاء، أساغوا له أن يعيش، ثم أمروا بتربيته، وعدّوه من أبناء الحكومة، ومنحوه قسطًا من أرضها، وتركوه لأمه تتولى شئونه إلى السنة السابعة من عمره. وإن وجدوه ضعيفًا أو ناقص الخلق أو مشوه الأعضاء، حرموه الحياة وأمروا أن يلقى فى غار عميق هناك، على مقربة من جبل «تَيْجيتَسْ»، وحجتهم فى ذلك أن

من خُلق ضعيفًا أو مشوه الخلق مثله ، لا يستطيع أن يكون فى مستقبل أيامه جنديًّا باسلاً يحمل السلاح وينفع أمته .

وكانت الأمهات إذا ولد لهن ولد ، غسلنه بالنبيذ وغمرنه فيه بدلاً من غسله بالماء ، اختباراً لقوة بدنه وصلابة جسمه ، معتقدات أن الأطفال الضعاف أو المِراض لا يتحملون الانغماس فى النبيذ ، فيغرقون ويموتون فيه ؛ وأن الأصحاء الأقوياء يكسبون منه نشاطًا ، ويزدادون به قوة على قوة . وكانت المراضع القائمات على تربية الطفل يبدين من العناية الشديدة به ما كان له أحسن تأثير فى قوته ونشاطه ومتانة أخلاقه . كن لا يَلْفُفْنَه ولا يَعْصِبْنَه لتبقى أطرافه مرسلة مطلقة الحركات لا يعوق نماءها عائق ، ولتظهر على وجهه شارات الحرية وعلامات الارتياح والاطمئنان ، وكن يتركنه وحيداً فى ظلام الليل ، ولا يبحن له أن يرفع صوته بالبكاء ، ليتعود من صغره الشجاعة وضبط النفس ، والاستهانة بالمخاوف ، والابتعاد بالنفس عما لا يليق بالرجال .

دور الحكومة والمراقبة

إذا بلغ الوليد السابعة من عمره ، أخذته الحكومة من أبويه ، وتولت تربيته ، فاسلمته الى مروِّض غلمانها ، وهو رجل من أتباعها ، له أعوان وأنصار يساعدونه فى عمله ، ويشرفون معه على حياة الغلمان الإسبرطيين ، ويتولون جميعًا شئون تربيتهم . ومن نظام التربية عندهم أن ينام الأطفال جميعًا ويأكلوا جميعًا فى أبنية عامة للحكومة ، تشبه معسكرات الجنود فى أيامنا الحاضرة . وكان الغلمان فى هذه المعسكرات يُقَسَّمون الى شراذم أو جماعات صغيرة ، على رأس كل جماعة منها رئيس يدير شئونها ويسوس أمورها . فمن كان من الأطفال أشد بأسًا وأكثر إقدامًا وأصلب عوداً وأفضل أخلاقًا ، أسندت اليه رياسة الجماعة ، ووجبت على الباقين طاعته . وكان عليهم جميعًا أن يقتدوا به ويسارعوا الى تلبية دعائه وألا يأنفوا من عقابه إذا نزل بهم

كانت التربية فى هذا الدور ترمى الى تمرين الغلمان على الطاعة وحسن الانقياد ، وتعويدهم الصبر واحتمال المشاق . ولذلك كادت تكون سلسلة من أعمال عنيفة وتمرينات شديدة ، يُكَلَّفُها الغلمان ويلزمون الصبر عليها وعدم الشكاية منها . كان الأطفال

ينامون من غير غطاء فوق حشايا من التبن ، حتى اذا بلغوا الخامسة عشرة من أعمارهم كان فراشهم الحلفاء ، ينتزعونها بأيديهم من شواطئ إفروتاس . ولا يرخص لهم فى استعمال المدى فى قطع هذه الحلفاء ، ليتعودوا تجشم المشاق واحتمال الصعاب . كانوا يمشون حفاة صيفاً وشتاءً ، ويلعبون وهم حاسرو الرءوس عراة الأجسام . وإذا بلغوا الثانية عشرة من أعمارهم ، نزعوا الأشعرة واكتفوا بالأدثرة ولم يرخص لاحد منهم فى اكثر من ثوب واحد يلبسه كل عام ، كما لم يرخص لهم أن يستحموا إلا فى أوقات نادرة وظروف خاصة من كل سنة ، فلا غرو ان كانت أجسامهم وسخة تتراكم عليها الأقذار والأوساخ

أما الطعام فكانوا لا ينالون منه إلا قليلاً ، يقدم اليهم منه ما لا يكفيهم . وقد كان ذلك مقصوداً لأمور هامة فى التربية عندهم . منها أن يتعودوا الجوع والصبر عليه . ومنها أن يساعدهم ذلك على أن يكونوا طوال الأجسام . فإنهم كانوا يعتقدون أن الأرواح الحيوانية إذا لم تُكبَّل بالأطعمة الكثيرة التى تزيد فى عرض البدن وغلظه ، مالت إلى الصعود ، وأخذت تسمو وترتفع ، شأن الأجسام اللطيفة الخفيفة . وبذلك يسهل على الجسم أن يتابعها فى الطول ، ويسايرها فى الصعود ، إذ ليس هناك من المادة الثقيلة ما يقعد بأحدهما عن السير فى الجهة العليا التى يتجه اليها بطبيعته . ومنها أنه يساعد على جمال الخَلْق وتناسب الأعضاء . فإن الأجسام الرقيقة الضامرة أخضع لسلطان الطبيعة وأطوع لأمرها ، والطبيعة تعمل دائماً على تسوية الخلق وتعديل الصور . أما الأجسام الثقيلة الغليظة فتقاوم الطبيعة وتستعصى عليها . ومن المقاصد الهامة فى ذلك أيضاً تدريبهم على الخديعة والحيلة فى الحروب ، وذلك أنهم كانوا إذا شكوا قلة الغذاء رخَّصوا لهم أن يسرقوا ما يكفيهم من الطعام ، كما كان يرخص لهم أن يسرقوا ما شاءوا من أى مكان أرادوا ، على شريطة ألا يراهم إنسان ، أو يعلم بأمرهم أحد ، فكانوا يدخلون الحدائق على حين غفلة من أهلها ، ويدلفون إلى الموائد العامة فى غيبة حراسها ، أو فى حلك الظلام ، فان غفلت عنهم العيون ونجوا من بغتات الرقباء ، أكلوا

هنيئًا وشربوا مريئًا وكانت عاقبة أمرهم خيراً . وإن أدرك أحدهم سوء الطالع فتنبه له الحى ، ورأته العيون ، وقبضت عليه الأيدى ، فيا للفضيحة والعار ، ويا للسُّبة الباقية والعقوبة المنتظرة . يُشْهَرُ أمره ويسلم إلى مروض الأطفال أو أحد من مساعديه لينال عقوبته ، فيضرب بالسياط ويحرم الطعام ، لا لأنه سرق ، ولكن لأنه لم يأخذ حذره ، ولم يحتفظ فى أمره . لذلك كان الغلمان اذا أقدموا على سرقة بالغوا فى التحرز والتعمية على الرقباء ؛ حتى لقد وصل الأمر بأحدهم أن سرق ثعلبًا صغيراً فحمله ومضى به ، ولما رأى الناس على مقربة منه وضعه تحت ثوبه ليخفيه عن عيونهم ، فأعمل الثعلب أنيابه ومخالبه فى بطنه فمزق أحشاءه وقطع أمعاءه ، والمسكين يمضى فى طريقه صابراً متجلداً يفضل الموت على الفضيحة والعار .

كان للتربية البدنيـة فوق ذلك مناهج مدرجة فى الألعاب الرياضية والتمرينات النظامية ، تبتدئ بالجرى والوثب ولعب الكرة ، وتستمر هكذا مدة طويلة ، حتى اذا كبر الغلمان انتقلوا الى تمرينات أخرى أكثر صعوبة وأشد حاجة الى القوة والمهارة . منها رمى الحلقات . وهى ألعوبة ذات حلقات حديدية ثقيلة يتناولها الصبيان ، ويقذفونها من مكان معين الى آخر بعيد عنه بنحو عشرين متراً لتدخل فى مسمار غليظ مثبت هناك ، أوتقع على أقرب مسافة ممكنة منـه . ومنها الرشق بالنبال والرمى بالرماح والمزاريق . ومنها المصارعة والملاكمة . ومنها النزال المطلق الذى لايقيد القِرْنُ فيه بقيد ؛ وهو نوع من العراك الشديد يشتبك فيه الخصمان ، ويُخَوَّل كلٌّ منهما أن يستعين بكل وسيلة مستطاعة ليقهر خصمه ويفوز عليـه ، فله اللكم باليد والرفس بالرجل ، والعض بالأسنان والأنياب ، وخمش الوجوه بالأظافر ، وفقء العيون بالأصابع .

كانوا يجتمعون لألعابهم وملاحمهم هذه خارج المدينة فى الهواء الطلق ، ويرخّصون لكل إنسان فى المدينة أن يشهدها ويرى رأيه فيها . وكان كل لاعب أو مقاتل موضعًا لنقد الحاضرين . فان كان شجاعًا باسلاً خفيف الحركات واسع الحيلة مدحوه وحمدوا بلاءه . وان كان هيابًا متثاقلاً أوسعوه ذمًّا ولومًا . ولذلك كان كلٌّ ند لايدَّخر وسعًا

فى إظهار شجاعته و إقدامه ، ولا يأبه لما يصيبه من الآلام والأوصاب فى سبيل الانتصار على نده ، و يفضل أن يموت محمود الجهاد مشكور البلاء ، على أن يُقَصِّر أو يفر من وجه القتال . وكان القصد من هذه الألعاب وهذه المعارك أن تقوى أبدان الغلمان وتقسو قلوبهم وأن يُغرَسَ فيهم من الصفات والخلال كل ما له قيمة ونفع فى الوقائع والحروب

ومن التمرينات الرياضية الفاشية عندهم الرقص . ولم يكن يقصد منه أن يكون وسيلة للظرف والأناقة أو المهارة وخفة الحركة ، كما هو القصد منه فى أيامنا الحاضرة ؛

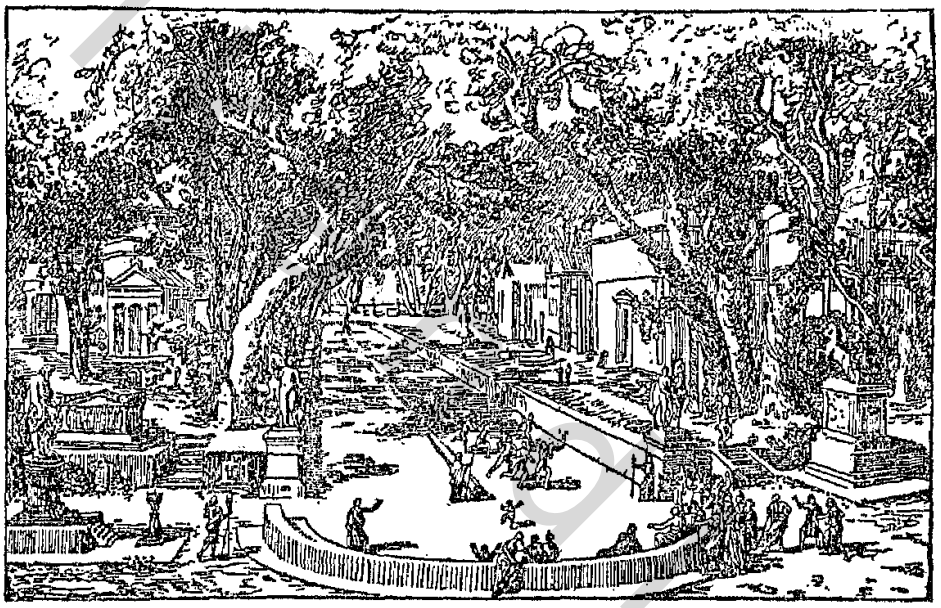

مضمار المسابقة فى إسبرطة

بل ليكون ذريعة إلى تربية العاطفة الوطنية ، وبث الروح الدينى فى الغلمان والشبان . وذلك لأنهم ما كانوا يألفون منه إلاّ الأنواع الحربية أو الدينية . فكانوا تارة يرقصون وعليهم لُؤَم الحرب وعدده كاملة . فيمثلون فى رقصهم أساليب الحروب الحاضرة والغابرة ، وتارة يرقصون بملابسهم العادية تعظيماً وتمجيداً للآلهة . وكان الغلمان دائمًا يلعبون و يرقصون فى الأعياد والمواسم الدينيـة ، ولا سيما الأعياد التى تقام لمعبودهم « أپُلُّو » .

لم يكن للغلمان الإسبرطيين نصيب يذكر من التربية العقلية بمعناها الفنى . فلم يكن لتعليم القراءة والكتابة إلاَّ أثر ضئيل بين طائفة من الصبيان قليلة . أما التربية العقلية

بمعناها الأعم ، فقد كانت لهم فيها وسائل كثيرة . منها أنهم كانوا يتعلمون جملة من قوانين لِيكُورْغُورس ومختارات من أشعار هوميروس ، وبعض أغان وأناشيد تحفظ عن ظهر قلب ، وتوقع مع النغمات الوترية أحسن إيقاع . ولم تكن هذه الأشعار والأناشيد لتكتب أو تقيد فى كتاب ، اللهم إلاّ فى أحوال نادرة . وقد كان القصد من هذه المحفوظات التى تصحبها النغمات الموسيقية أن تكون كالرقص وسيلة لتربية الروح الدينى ، وغرس العواطف الوطنية فى الغلمان

ومن وسائل هذه التربية وكذلك التربية الخلقية أن كان الغلمان يلزمون الاستماع لأحاديث الرجال والشيوخ ، فى أوقات الطعام على الموائد العامة ، وفى الشوارع والطرقات والمنتديات ، ويكلَّفون قبول مايوجه الى سلوكهم وأعمالهم من أنواع الاستحسان والاستهجان فقد كان لكل ذلك أثر عظيم فى تنمية مداركهم ، وتعويدهم الأمانة والطاعة وضبط النفس واحترام الآراء وتوقير الشيوخ . وقد كان لهذه الفضيلة الأخيرة شأن كبير فى إسبرطة . ولا غرو فقد كان للشيوخ فى هذا البلد أسمى المناصب وأرفع الأعمال . فهم القضاة ، وهم حماة القوانين ، وهم رؤساء العشائر وهم المربون والمعلمون . حكى أن شيخاً دخل داراً من دور التمثيل فى أثينا ومرَّ بين صفوف القوم وهم يسخرون منه ولا يفسحون له ، فاستمر فى سيره حتى اذا وصل إلى جماعة من الإسبرطيين ، قاموا إجلالا له وأجلسوه بينهم ، فقال الشيخ « حقاً إن الإغريق جميعاً يعرفون الفضيلة ولكن لا يعمل بها الا الاسبرطيون »

ومن التربية العقلية أيضاً المسامرات والمناقشات الليلية . وذلك أن كل طائفة من طوائف الغلمان كانت تجتمع هى ورئيسها بعد العشاء ، فيطلب الرئيس إلى أحد الغلمان أن ينشد أنشودة ، أو يوقع ألحاناً من الغناء ، وإلى آخر أن يجيب جواباً سديداً موجزاً عن سؤال عام يلقيه اليه . كأن يسأله من أحسن رجل فى المدينة ؟ أو ما أنفع عمل قامت به الحكومة فى هذه السنة ؟ أو ما رأيك فى هذا العمل أو ذاك ؟ وأشباه تلك الأسئلة التى تلقى لاختبار مواهبهم العقلية ، والتى تمرن فيهم قوة الحكم ، وتدعوهم إلى

التدخل فى شئون بلادهم العامة . وقد كانوا يكلفون مع الاجابة ذكر الأسباب والبراهين بعبارات جلية مختصرة . فان أصاب المجيب وأوجز فى كلامه ، حمده رئيسه ومدح إجابته . وإن أخطأ أو أطال القول ، أخذ إبهامه فوضعها بين نواجذه ، وعضها عضًّا شديداً عقاباً له . وكان كثير من شيوخ المدينة وحكامها يحضرون هذه المجالس ، ويشهدون هذه المناقشات ، ليختبروا حزم الرئيس فى استعمال سلطته ، وصحة حكمه على إجابات الغلمان ، وحسن تقديره للعقوبة . فان رأوه حازمًا صائب الحكم يقدر العقوبة تقديراً صحيحًا ، شجعوه وشكروا له فعله . وإن رأوه جائراً قاسياً ، أو متراخيًا متهاونًا ، أو فاسد الحكم ، أنظروه إلى أن ينصرف التلاميذ ، فاذا انصرفوا ، وثبوا عليه فأوسعوه وَكْزاً ولكماً :

ومن النظم المرعية عندهم فى التربية الخلقية أن يختار كل رجل من رجال المدينة غلامًا يتبناه ويُعِزُّه فيرافقه فى غدواته وروحاته ، ويجالسه على الطعام والشراب ، ويبث فيه ما شاء من الأخلاق الفاضلة والخلال الكريمة ، ويعاضده ويناصره إذا اشتبك فى قتال أو نزال : قال « بلوتارخ » فى ترجمة حياة ليكورغوس

« كانت هذه الصلة التى بين الرجال والغلمان صلة شريفة بريئة من كل وصمة تدنسها ، وكان لها محل رفيع ومنزلة سامية بين سكان المدينة . حتى لقد كان أيضًا للعذارى عاشقات من أطهر نساء المدينة وأكثرهن استقامة وصلاحًا . وفى كثير من الأحيان كان رجلان أو اكثر من رجال المدينة يألفون غلامًا واحداً ويتبنونه ، فلم يك تنازعهم فى مودته سببًا للتباغض والتحاسد بينهم ، بل كان بالعكس عاملاً من عوامل التقريب بين نفوسهم ، والتأليف بين قلوبهم ، لاشتراكهم فى عمل واحد يرجون جميعًا صلاحه وفلاحه ، ذلك العمل هو تقويم الغلام وتهذيب أخلاقه ، والوصول بروحه إلى أرقى درجة مستطاعة » . كان الرجل اذا أحب غلامًا فتبناه واتخذه خليلاً ورفيقًا ، عد شريكا له فيما يناله من خير وشر ، فيقاسمه الفخار إن ناله شرف فى لعب أو قتال ؛ ويقاسمه الفضيحة إن أصابه خزى أو لحق به عار . قيل ان رجلاً من هؤلاء قضى عليه حكّام

المدينة بغرامة مالية كبيرة ، لأن خليله من الغلمان بكى ونطق بكلمات مستهجنة من أجل صدمة عنيفة أصابته وقت اشتباكه فى العراك .

دور الشباب والرجولة

إذا بلغ الغلام الثامنة عشرة من عمره ، ابتدأ دراسة الحروب دراسة عملية صحيحة . وبقى فى السنتين الأوليين من هذا الدور يُدْعَى شاباً ناهضاً ، ويمرن تمريناً جِدِّياً على القتال واستعمال السلاح . وكان فى كل عشرة أيام يعقد له امتحان شديد تمثل فيه ضروب الفظاعة والقساوة . فيطرح على الأرض ويضرب بالسياط والعصى ضرباً شديداً مبرحاً يدمى له بدنه ، وتتهشم منه أضلاعه ، حتى لقد شوهد كثير من الشبان يسلمون أرواحهم أثناء هذا التعذيب دون أن تبدو عليهم علامات الضجر والتألم . كل ذلك إنما يقصد منه أن تختبر شجاعتهم وقوة أبدانهم ، وأن يعودوا تحمل الآلام وركوب الصعاب .

إذا بلغ الشاب الناهض العشرين من عمره ، أصبح شاباً كامل الشبيبة ، وأصبحت حياته حياة عسكرية حقيقية ، فانتظم فى سلك الجيش ، وحلف يمين الإخلاص لبلاده ، ثم عاش بعد ذلك عشر سنوات يأكل أخشن الطعام ، ويأخذ نفسه بالسباحة والصيد ، ويتولى حراسة قلعة من القلاع القائمة على حدود مدينته .

الرعوية الاسبرطية

كان الفتى الإسبرطى إذا بلغ سن الثلاثين ، خولته الحكومة الحقوق المدنية ، وصيرته عضواً من أعضاء جماعتها العامة ، واعتبرته رجلاً كامل الرجولة ، وألزمته أن يتزوج من فوره . ولكنها لم تبح له أن يتخذ لنفسه منزلاً خاصاً يأوى إليه . وما كان فى استطاعته أن يزور زوجه إلا متخفياً متستراً . وكان حتماً عليه أن يأكل على الموائد العامة مع الصبيان والغلمان والشبان ، وأن ينفق كثيراً من أوقاته فى الإشراف على سلوكهم وأعمالهم . وقد كانت الحكومة تنتظر من كل فرد من أفراد رعيتها الذين بلغوا سن الرجولة ، أن يعملوا على تقويم أخلاق الغلمان والشبان الذين يصادفونهم فى الطرقات

يسيئون السلوك ، و يأتون من الأعمال ما لا ترتضيه الشجاعة والفضيلة . وكان من العار على الرجل ألاَّ تكون له صلة مودة ومحبة بغلام من غلمان المدينة ، وأن يُرَى فى جميع أحواله وليس معه خليل منهم يرافقه ويحادثه فى غدواته وروحاته . وهذه كلها واجبات تضاف إلى واجبه العسكرى الذى يعد أكبر واجباته وأهم أعماله

تربية البنات

كانت تربية البنات فى إسبرطة تشبه تربية الغلمان شبهاً كثيراً ، حتى فى خشونتها وألعابها الرياضية وتمريناتها العسكرية الأولية . فكن يتعلمن الجرى والوثب والقفز ورمى الحلقات ورشق الرماح والمزاريق والمصارعةَ والملاكمة ، كما يتعلمها الغلمان . وكن يتعلمن الرقص والغناء والإنشاد والضرب بالناى وعلى العيدان .

وكان من نظم التربية فى اسبرطة أن تربى البنات منعزلات عن الذكور ، وأن يرخص لهن فى الإقامة فى منازلهن ، وأن تتولى النساء هذه التربية . وبينا كانت تربية الغلمان ترمى إلى إعداد جنود قادرين على الجلاد والكفاح واحتمال المشاق ، كانت تربية البنات ترمى إلى إعداد أمهات يلدن الجنود الأقوياء ، ويقدرن على غرس الروح الديني ، والعواطف الوطنية فى أولادهن .

كانت المرأة الإسبرطية موضعاً لإجلال زوجها واحترام أولادها ، معروفة بالطهر والعفاف ، مشهورة بالأخلاق الفاضلة والسجايا النبيلة . وكانت سليمة البدن قوية العضلات ، مشغوفة بحب الوطن ، تهب له أرواح أولادها ، وتحبب إليهم الموت فى سبيل إعزازه ونصرته . يدلك على مبلغ وطنيتها الصادقة الممزوجة بنكران الذات ، ما يروى من أن إحدى الأمهات الإسبرطيات قامت تودع ولدها الذاهب الى الحرب ، فكانت كلمتها له « عُدْ بترسك أو محمولاً عليه » وما قيل من أن امرأة سمعت بفرار ولدها من وجوه الأعداء ، فأسرعت للقائه وقتلته ، وقالت « إن نهر إڤْرُوتاس لا يشرب منهُ الجبناء » . ومن ذلك أيضاً ما يحكى عن امرأة أخرى وقد خرجت لاستقبال البريد

واستماع أخبار الحروب ، فأخبرها القادمون بموت أولادها الخمسة فى ساحة القتال ، فأجابت وهى هادئة ثابتة الجأش « ما لهذا أتيت ! هل النصر لنا ؟ » فأجيبت نعم . فقالت « هاموا نُقِم الصلاة شكراً للآلهة »

محاسن التربية الاسبرطية ومثالبها

لم تكن قوانين لِيكُورْغُوس زعيم الإسبرطيين مكونة من أحكام تفصيلية وإرشادات خاصة يُلْزَمُ الإنسان بمتابعتها متابعة حرفية ، كما كانت حال الكتب المقدسة فى الأمم الشرقية ؛ بل كانت أصولاً عامة وقواعد كلية تبيح للفرد أن يكون له بعض الحرية فى المسائل الفرعية ، والتفصيلات الدقيقة . ولذلك لا نخطئ إذا عددنا التربية الإسبرطية عاملاً من العوامل التى ساعدت الفرد بعض المساعدة فى إظهار شخصيته ، وتوسيع مدى حريتــه ، إلاَّ أنها على الرغم من ذلك ما كانت لتأبه لمصالح الأفراد ومنافعهم . وإنما كان منتهى همها العناية بأمور الجماعة ، والمحافظة على كيان الحكومة ، وإن كلفها ذلك إضاعة الحقوق الفردية وإهمالها كل الإهمال . فلا غرو أن عجزت هذه التربية عن أن تصل بالإسبرطيين إلى درجة الرجولة الكاملة ، أو أن تبث فيهم جميع الصفات التى تكوّن الرجل الحر المهذب .

بقى الإسبرطيون أجيالاً عدة ، وهم يفوقون جميع الإغريق شجاعة وإقداماً وتحملاً للمشاق وضبطاً للنفس ، وبقى نساؤهم كذلك معروفات بالطهر والعفاف ، مشهورات بالجد والحرص على الواجب والصراحة فى القول والعمل . كذلك أظهر ولدانهم أعظم أنواع الشجاعة والبسالة فى اقتحام الأخطار واحتمال الآلام . وكانوا آية الآيات فى الانقياد لرؤسائهم ، والاستسلام لشيوخهم ، حتى أخذهم الفلاسفة ورجال الأخلاق نماذج وأمثلة عالية فى كل هذه الصفات .

حقاً أنتجت التربية الإسبرطية كل هذا . ولكنها لم تستطع أن تحفظ التوازن فى حياة الأطفال ، ولم تفلح فى تهذيب الطبيعة البشرية من جميع جهاتها ومناحيها ، فأهملت

تلك العواطف الرقيقة التى تتجمل بها الحياة الإنسانية ، وأغفلت تلك المواهب العقلية ، فلم تَغْذُها بشىء من ضروب الفلسفة ، ولم تُرْهِفْها بنوع من أنواع العلوم والفنون .

كان نظام التربية الإسبرطية فوق ذلك قائمًا على قوة الأمة وحالتها الخلقية ، لا على أخلاق الفرد وقوة سريرته وكمال شعوره الداخلى . ولذلك كان الإسبرطى إذا خرج من بلاده ، وأصبح فى حل من الخضوع للقوانين التى تقيد سلوكه وتضبط أموره ، ذهبت أخلاقه وفسدت حياته الأدبيـة ، ولم يجد من نفسه زاجراً يصده عن غوايته وضلاله .

ومن مثالب هذه التربية الحربية أنها أورثت الإسبرطيين صلابة فى أخلاقهم وعاداتهم وسائر أحوالهم ، فأفقدتهم ملكة العمل بما يناسب الزمان والمكان ، شأن الجنود الذين تربوا على الطاعة العمياء ، وتعودوا السير على نظام ثابت لا يتغير . يشهد لذلك أنهُ لما فقدت أثينا مجدها وسلطانها بعد الحروب البلوپونيزية ، وانتقلت السيادة منها إلى إسبرطة ، وصار لهذه المدينة الطول والحول فى جميع البلاد الإغريقية ، لم تستطع الثبات فى هذا الموقف الجديد الذى لم تألفه . ولم تَقْدر أن تلبس لهذه الحال لبوسها ، فعجزت عن قيادة البلاد ، وسرعان ما ضاع ذلك المجد الذى كسبته .

كانت التربية الإسبرطية ترمى إلى حفظ كيان المملكة وبقائها فى أمان من التغير ، وقد حال ذلك بينها وبين النجاح والتقدم فى الحياة ، وعاقها حتى فى أيام مجدها وسلطانها أن تعمل عملاً له أثر كبير فى تقديم حضارة العالم وترقية مدنيته . ولا نغمط هذه التربية حقها إذا قررنا أنها لم تترك للعالم إلاَّ أمثلة عاليـة من البسالة والشجاعة واقتحام المهالك وركوب الأخطار ؛ كالتى سطرها التاريخ عن « ليونيداس » ملك الإسبرطيين وجنوده الثلاثمائة فى معركة «ترموپيل» ، حين كانوا فى قتال مع الفرس وخانهم الخائنون من عبدة المال ، وتركهم أحلافهم من أهل الولايات الأخرى ، وتدفقت عليهم الجيوش الفارسية ، وبغتتهم من فوقهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم فما ارتاعوا ، ولا جنحوا إلى فرار ، ولا صرفوا وجوههم عن مباشرة القتال . ولكن

ثبتوا وهم يعلمون أنهم يثبتون للموت واستقبال البلاء . وقاتلوا مستبسلين حتى فلت سيوفهم ، وسقطوا مثخنين بالجراح ، فكان ذلك فخراً لبلادهم ، وموضعاً لإعجاب الأبطال من أوليائهم وأعدائهم . فلو أن التربية اليونانية وقفت عند الحد الذي وصلت إليه التربية الإسبرطية ، ما كان لهذه الأمة الإغريقية من الآثار فى تمدين العالم وترقية حضارته فوق ما كان للأمم الشرقية القديمة . لذلك لا يعنى الناس بالتربية الإسبرطية لذاتها . و إنما يعنون بها لأنها سبيل إلى التربية اللاتينية الكاملة ، ذات المبادئ العالية والأغراض السامية .

هذا . وللتربية الإسبرطية فوق ما تقدم مثالب كثيرة لا يتسع المقام لبسطها ، ولكنا نلمع إلى بعضها إلماعاً . فمنها أنها لم تتسع إلاَّ لأولاد الأعيان والنبلاء ، أما أولاد العامة والسوقة وهم الأكثرون ، فلم يكن لهم في هذه التربية نصيب . ومنها أنها كانت قائمة على الأثرة وحب الذات . فقد كانت تعمل لإعزاز المدينة الإسبرطية وحدها ، بدلاً من أن تعمل لإعزاز البلاد الإغريقية جميعها ، أو ترمى إلى إسعاد الإنسان أيا كان وطنه . ومنها أنها كانت لا تبين للنشء إلاَّ واجب الإنسان لحكومته ؛ أما واجب الإنسان للإنسان فقد أغفلته إغفالاً . ومنها أنها فصمت عرا الأسرات بابعادها الأولاد عن الآباء والأمهات ، حتى قست القلوب ، واخشوشنت الطباع ، وصار الوطن كل شىء عند الإسبرطيين . ومنها أنها أنتجت رجالاً جبابرة قساة فى الحروب ، دأبهم البطش والانتقام عند القدرة ؛ يحسنون فنون القتال ، ولا يعرفون شيئاً من فنون السلام .

التربية الأثينية فى العصر القديم

بقيت التربية الأثينية أجيالا كثيرة ، وهى كالتربية الإسبرطية ، همها الأول مصلحة الحكومة ومنفعة الجماعة . أما الافراد فلم تحفل بأمورهم إلا قليلاً . ولكنها مع هذا كانت أوسع مدى وأبعد غوراً من التربية الإسبرطية ، إذ كانت تُعِدُّ النشء لأعمال السلم ، كما تعدهم لأعمال الحروب ، وتأخذهم بالنظم السياسية الأثينية ، كما تأخذهم بمناهج الالعاب

الرياضية والتمرينات النظامية . وكانت ترمى دائمًا إلى تكوين رجال تكافأت فيهم القوى الجسمية والعقلية والخلقية ، وتحس دائمًا أن الفرد لا يحسن القيام بواجبه لحكومته ، الا إذا كَمُلَ فى ذاته ، وتوازنت طبائعه توازنًا صحيحًا . ولذلك كانت موضوعات التربية على تمائلها فى المدينتين ، تختلف أغراضها وقيمُها النسبية فى التربية الأثينية عنها فى التربية الإسبرطية . ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى معالجة التربية الأثينية على حدة .

دور الطفولة

لم يكن للحكومة الأثينية ما كان للحكومة الإسبرطية من التدخل المطلق فى سياسة التربية وشئون حياة الأطفال ، ولم تكن طرق التربية فى أثينا كما كانت فى إسبرطة خشنة قاسية ذات قيود ثابتة محدودة . نعم كان كثير من الأطفال بعد ولادتهم يُلْقَوْن فى المغارات والفلوات طعامًا للذئاب والوحوش ؛ إلا أن ذلك لم يكن للحكومة ضِلَع فيه . وإنما كان يفعله الآباء من تلقاء أنفسهم إذا كان لهم أولاد كثيرون ، أو أحسوا أن الولد إذا عاش لم يكن مُشَرِّفًا لأسرته ، لضعف فى جسمه أو تشويه فى خلقه .

كانت تربية الأولاد ذكوراً وإناثًا إلى السابعة من أعمارهم منوطة بالأمهات اسمًا لا فعلاً . أما المباشرات لها القائمات بأعمالها حقًّا ، فكن حاضنات ومربيات من الإماء . وقد كان الطفل فى هذا الدور يستمال إلى استماع الأشعار السهلة ، وأخبار الأجيال الماضية ، وحكايات عن الأبطال والآلهة مقتبسة من أشعار هوميروس ، ويحمل على حفظها لتتربى فيه من المبدأ قوة الخيال ، ولينغرس فيه ذلك الوجدان الشعرى الذى كان ميزة أهل هذه المدينة .

دور الفلومة

إذا بلغ الوليـد السابعة من عمره ، أرسله أبواه الى المدرسة ، وعهدا به الى رقيق يصحبه فى غدواته وروحاته . ويختار هذا الرقيق عادة من العبيد الذين لا قدرة لهم

على القيام بواجبات أخرى ، لشيخوختهم أو لعاهات جسمية فيهم . وعلى هذا الرقيق أن يشرف على سلوك الغلام ، ويراقب أخلاقه أشد المراقبة ، وعلى الغلام أن يطيعه ويمتثل أوامره ، ويسير على هديه وإرشاده . فان خالف وعصى كان لهذا الرقيق أن يضربه ويجلده . وغنى عن البيان أن قائداً هذه حاله ، وتلك منزلته من الجماعة ، لايمكن أن يكون له فى قلب الطفل شىء من الإجلال والاحترام .

غلام أثينى يذهب الى المدرسة فى رعاية حارسه ومربيه

حقًّا لقدكانت التربية الأثينية أوسع مدى وأكثر حرية من التربية الإسبرطية، إلا أنها بتركها تقويم الغلمان وتهذيب أخلاقهم للخدم والعبيد ، كانت أقل حيطة فى تكوين الأخلاق فى الأدوار الأولى من الحياة .

لم يكن التعليم الابتدائى فى أثينا عملاً من أعمال الحكومة كما كان فى اسبرطة ، ولم يك نظامه خاضعًا لسلطانها كل الخضوع ، وإنما كان عملاً من أعمال الأفراد ، وحقًّا من حقوق الآباء ، إلا أن من قَصَّرَ منهم فى تربيــة ولده ، لم يكن له بمقتضى قوانين البلاد أن يطلب منه المعونة والمساعدة فى أيام الضعف والشيخوخة

كان الغلمان يُعَلَّمون فى منازل أو قاعات يملكها المعلمون أو يستأجرونها من الحكومة أو الأفراد . وكان للحكومة حق تفتيش هذه المدارس ، وحق الإشراف على أعمالها .

أما مناهج التعليم ومقدار الزمن الذى ينبغى للتلميذ أن يقضيه فى المدارس ، فكانت أموراً البت فيها للآباء وحدهم ، ولم يك للحكومة من حق التدخل أكثر من أن ترى أن كل تلميذ قد نال قسطاً من التمرينات الرياضية وقسطاً من الموسيقى .

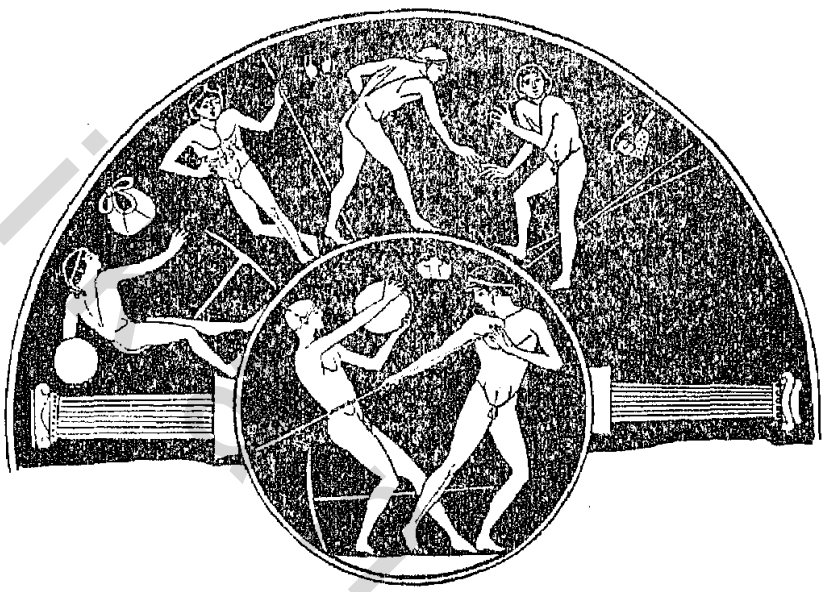

مدرسة التمرينات البدنية

كان لتعليم هـذه الفنون نوعان من المدارس ، يدعى أولهما ميادين المصارعة أو مدارس التمرينات البدنية ، ويمرن فيها التلاميذ على الألعاب والأعمال البدنية ، ويدعى ثانيهما مدارس الموسيقى ، وتؤخذ فيها الغلمان بفنون الشعر والموسيقى .

مدرسة الموسيقى

أما الأولى فأماكن واسعة فى الهواء الطلق مغطاة بالرمال ، وفى كل منها ميدان فسيح للسباق . وكثيراً ما كانت تتصل هذه الأماكن بمدارس الموسيقى على نحو ما هو معروف الآن فى ملاعب المدارس الحديثة . وقد كان اليوم المدرسى فى هذه المدارس طويلاً جدًّا ، يبتدىء من طلوع الشمس إلى غروبها . ولم يك ذلك بالأمر الشاق على التلاميذ ، لأن معظم التعليم كان جسميًّا محضًا ، ولأن أيام العطلة التى تغلق فيها المدارس إكراماً للآلهة ، كانت كثيرة جدًّا .

ومن النظام المألوف فى التربية الأثينية ، أن كان لكل مكان من أماكن المصارعة رئيس يقوم بأمر التعليم فيه ؛ وله مساعدون يدهنون جسوم الأطفال بالزيت عند استعدادهم للعب ، ثم يدلكونها ويفركونها بعد الانتهاء منه . وكانت مناهج الألعاب والتمرينات مدرجة من السهل إلى الصعب كما كانت فى إسبرطة . كانت تشمل التمرينات البدنية الخفيفة السهلة ؛ ولعب الكرة ، والجرى ، والوثب ؛ ورمى الحلقات ، وقذف الرماح والمزاريق ، والمصارعة . أما الملاكمة فما كان يرخص فيها للغلمان إلا بعد أن يكبروا وتعلو أسنانهم ، مخافة أن تجنى عليهم فيصاب أحدهم بما يشوّه أعضاءه طول حياته .

جدير بنا هنا أن نقف قليلاً لنبسط للقارىء غايات التربية البدنية وأغراضها فى أثينا ، ليعرف الفرق بينها وبين غايات التربية البدنية فى إسبرطة . لم ترم هذه التربية فى أثينا الى تكوين أمة عسكرية لأبنائها شجاعة وإقدام فى الحروب ، وإنما كانت ترمى إلى المهارة والخفة فى الحركات والسكنات ، والسهولة فى الانعطاف والتثنى حين القيام والقعود وفى أثناء العمل ، وإلى القوة البدنية واشتداد العضل مع جمال الصورة ولطف السمت ، ذلك الى الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة وإرهاف المدارك وتثقيف العقول . فالجرى ينمى الساقين والقدمين ، والعَدْوُ السريع وأنواع الوثب تقدر الانسان على استحضار قواه وجمع ما تشعث منها ، وسباق المسافات البعيدة يذلل النفوس ويعودها احتمال المشاق ، ورمى الحلقات وقذف الرماح ورشق النبال تمرن العين واليد

على حسن الرماية و إصابة الأغراض . والمصارعة تعود الانسان ضبط النفس فوق ما لها من النفع فى تحصيل الغايات السابقة

كانت أنواع التربية العقلية والجمالية والخلقية بالضرورة أظهر فى أثينا منها فى إسبرطة، وكانت معاهد التدريس حيث تدرس الموسيقى هى الكفيلة بكل هذه الأنواع من التربية فى أول الأمر . ولا عجب فقد كانوا يقولون إن آثار الموسيقى فى تهذيب النفوس أشبه شىء بآثار الألعاب الرياضية فى تقويم الجسوم . ولكن ماذا كانوا يريدون بالموسيقى ؟ كانوا يريدون بها معنى أعم ومقصداً أوسع ، فقد كانت تشمل عندهم عرائس الآداب التسع ، وكل ما كان على مثالها من الموضوعات الأدبية والفنون الموسيقية بمعناها الأخص. هذا ، ولما صارت طائفة كبيرة من قصائد الغناء والرثاء والحماسة تحفظ وتلقى مصحوبة بنغمات الأوتار ، وأصبحت الذاكرة بذلك تتحمل فوق ما تستطيع ، رأى الموسيقارون الضرورة ماسة إلى كتابة ما يريدون إيقاعه من هذه الأشعار . وكان من نتائج ذلك أن لم يجعل هنالك فارق بين التربية الأدبية والتربية الموسيقية ، فكانا نوعاً واحداً له معلم واحد هو أستاذ الموسيقى .

كانت القراءة والكتابة أساس التربية الأدبية ، وكانت الطريقة المألوفة فى أخذ الغلمان بهما أنّهم يتعلمون أولاً رسم الحروف بالتخطيط فى الرمال ، حتى إذا أتقنوا ذلك ، أُخِذُوا بنسخ أبيات من الشعر وقطع من النثر تختار لهم من مؤلفات البلغاء ، ينقشونها أولاً على ألواح من الشمع ، ثم يكتبونها بعد ذلك على الرقوق والجلود الرقيقة بالمداد والأقلام . وقد كانت عناية المربين بهذه المختارات عظيمة . كانوا يراعون فيها أن تكون مشتملة على عظات نافعة ، وقصص تاريخية ، ومدائح فى أبطال اليونان ورجالهم الأقدمين ، لتثير فى نفوس الغلمان حب الأوطان ، وترغبهم فى الاقتداء بأبطالهم والتشبه بهم فى كرم الخلال وحسن الفعال .

ومن طرائقهم فى التعليم أنهم كانوا يكتبون الدرس فى يوم ، ويتخذونه موضوعاً للمطالعة فى اليوم الذى بعده. فإن وَجَدَ التلميذ درسه غير واضح الكتابة فى أثناء المطالعة

وعانى من وراء ذلك شيئًا من النَّصب والتَّعب ، لم يرجع باللائمة إلا على نفسه ، وكان ذلك باعثًا له على تجويد خطه فى المرة التالية

لم تكن علامات الترقيم قد وُضِعَتْ فى ذلك العهد ، ولم تكن الكلمات مفصولاً بعضها عن بعض فى الكتابة . فلا عجب أن وجد صغار الغلمان صعوبة عظيمة فى المطالعة . ولا بد أن يكون المعلمون قد خففوا عنهم بعض العبء ، فوضعوا لهم قبل البداءة فى المطالعة علامات تدل على نهاية الكلمات ، وترشدهم الى مواضع الوقف . أما الكبار فلم يكونوا لينالوا شيئًا من هذه المساعدة . كانو يقرءون و يلاحظون تقسيم الجمل و يراعون مواضع الوصل والوقف بمعونة العقل وحده ، وكانوا يُراضُون على القراءة الواضحة الجَلِيَّة الممثلة للمعنى تمام التمثيل ، و بذلك كانت القراءة نوعًا من أنواع الاختبار العقلى الذى يظهر ما فى الطفل من الذكاء وسرعة الخاطر

كان تعليم الموسيقى إلى القرن الخامس قبل الميلاد فى أثينا لا يزيد على تعليم الغلمان التغنى بالأشعار والأناشيد الدينية والوطنية ، والضرب على العيدان ، واللعب بالمعازف ذات الأوتار . ولم يكونوا ليتعدوا تلك الألحان العذبة والنغمات السهلة التى تكفى فى تذوق أسرار الفن . أما المهارة الفنية فكانت محظورة عليهم لانها لا تليق بهم . وقد كان الأثينيون يرون من الضرورى أن يدرك الأطفال اتزان الكلام و إيقاع الألحان لأنهم بدون ذلك لايتفهمون الشعر ، ولا يستطيعون الوصول إلى شىء من روعته وقوته . وكانوا فوق ذلك يأخذون الكبار من الغلمان بقرض الشعر وارتجال القصائد فى موضوعات تعين لهم وتطلب منهم . كانوا يرون أن الموسيقى تزيد فى ترقيق العواطف واتساق الطبائع ، واعتدال الأمزجة ، كما تزيد فى قوة الأصوات وانتعاش الأرواح ، وتُعِين على الكلام وتساعد على العمل ، وهذه غايات لا تكاد التربية الحديثة ترمى إلى أكثر منها . و بهذا يتجلى لك كيف كان تعليم الموسيقى يتضمن تربية الغلمان تربية عقلية خلقية جمالية

بقى موضوع من موضوعات الدراسة الابتدائية فى المدارس الأثينية ، ذلك هو الرقص ؛

ومن الصعب إدخاله تحت نوع خاص من أنواع المواد المدرسية . والأقرب إلى الصواب أن يدخل ضمن التمرينات البدنية أو الفنون الموسيقية ؛ ومما يساعد على ذلك أنهُ كان يعلم فى أماكن المصارعة ، فى حين أن أستاذه المشرف عليه كان موسيقاراً .

كان الرقص عند الأثينيين عبارة عن حركات وانعطافات متتالية يقوم بها الراقص على هيئة منتظمة متناسقة لتمثل بعض العواطف والمعانى القائمة بالنفس ، و يصحبها فى العادة أغان وأناشيد وضرب على الأعواد ولعب بالمعازف ، فتزداد بذلك العواطف والمعانى الممثلة بالرقص جلاءً ووضوحًا . وقد كانوا يُعْنَوْن بتعليم غلمانهم الرقص لغايات كثيرة . منها تمثيل ما يتضمنهُ الشعر من المعانى والمغازى . ومنها تربية الشعور الوطنى وغرس الروح الدينى فى النفوس . ومنها تقوية البدن وتعويده الخفة والنشاط . ومنها ما يكسبه الراقص من حسن القد ولطفه وسهولة تثنيه وانعطافه . فالرقص على هذا يساعد فى تقويم الأجسام وتهذيب الأرواح معًا ، فهو جِمَاع التربيتين الجسمية والعقلية والصلة الوثيقة بينهما .

كان منهاج الدراسة الابتدائية فى أثينا واسع المقاصد غزيراً غنيا ، على الرغم مما كان يظهر من قصره وقلة مواده . حقًّا بقى المنهاج الى القرن الرابع قبل الميلاد ولا أثر فيه للعلوم الرياضية اكتفاء بتحصيلها فى الحياة العملية ؛ ولم يجد الرسم مكانًا فيه إلاَّ فى زمن متأخر ، كذلك لم يكن لكثير من العلوم التى لها عظيم الأهمية فى التربية الحديثة وجود مستقل بين مواده ، إلاَّ أن الموضوعات التى كانت تختار للمطالعة والحفظ ، والأناشيدَ التى كانت تنتخب للتغنى والرقص ، كانت جميعها مملوءة بتجاريب الشيوخ والأبطال ، وعظات الفلاسفة ورجال الأخلاق . وكان شرح الأساتذة والمعلمين حافلاً بمسائل العلوم والفنون ، غنيًا بأنواع المعارف السائدة فى تلك الأزمان . كانوا إذا شرحوا للتلاميذ أشعار هوميروس أو آثار غيره من الكتاب والبلغاء ، أفاضوا فى ذكر مسائل الدين والأخلاق والسياسة والحياة الاجتماعيـة ، ولا ريب أنهُ كان لذلك من التأثير العظيم فى حياة الغلمان ما لا يظهر للمربين الحديثين من هذا المنهاج القصير المحدود .

أما طرق التعليم فلم تبلغ من التهذيب فى ذلك العصر درجة عالية . كان الأطفال يتعلمون الكتابة بمحاكاتهم نماذج المعلمين ، و يتبعون فى المطالعة طريقة تعليم الحروف الهجائية بأسمائها ، لا الطريقة الصوتية التى قوامها تعليم الأطفال رسم الحروف ونطقها من غير تعرُّضٍ لأسمائها . أما الأشعار ومطالعتها والتغنى بها فقد كان المعلم يضع لهم فيها نماذج يحاكيها الأطفال محاكاة جمعية . ومن طرائقهم أيضًا أنهم كانوا يحفظون ما اختير لهم من شعر ونثر قبل تفسيره وشرحه ، فإذا ما انتهوا من حفظه ، أقبلوا على تفهم معانيه وإدراك مغازيه .

أما النظام فقد كان المعلمون يلجئون فى حفظه إلى العقوبات والمكافآت . ولا بد أن تكون المنافسات التى كان لها أعظم شأن فى جميع مناحى الحياة الأثينية قد أثرت تأثيراً عظيماً فى معاهد التعليم .

لم تكن هناك مؤهلات أو شروط تشترط على من يريد الاحتراف بمهنة التعليم من المعلمين ، بل كانت المهنة حرة طليقة من كل قيد يحترف بها كل من شاء . وقد كان ذلك إلى أمور أخرى سبباً فى قلة ما كان للمعلمين فى المدارس الابتدائيــة من الإجلال والاحترام بين الأثينيين .

دور المراهقة

إذا وَصَل الغلام الأثينى الخامسة عشرة ، وكان من أبناء الطبقة الموسرة المتعلمة ، انتظم فى سلك التعليم الثانوى . وهو نوع راق من التعليم له معاهد تعرف بمعاهد التربية البدنية ، وتقام عادة فى الغابات الكثيفة القائمة بأطراف المدينة . وله كذلك أساتذة من أقوى الأثينيين أجساماً وأصلبهم أعواداً يدعون أساتذة التربية البدنية . ولم تكن معاهده كمعاهد التربية الابتدائية ملكاً للأفراد ، بل كانت معاهد حكومية تديرها الحكومة وتنفق عليها من الخزانة العامة . أما مواد هذا التعليم فكانت لا تخرج عن أعمال بدنية . كانت تتضمن جميع التمرينات التى تقدم ذكرها عند الكلام فى ميادين المصارعة ،

ولكن بطريقة أشد عنفاً وأكثر خشونة . وتشمل فوق ذلك تمرينات أخرى جديدة لا عهد للأطفال بها فى تربيتهم الابتدائية . كان الغلمان يجرون فى هذا الدور وعليهم لباس الحرب ؛ ويشتبكون فى مصارعات عنيفة قاسية ، ويدخلون فى أنواع من الملاكمات شديدة ، وفى كثير من الاحيان يُخَوَّلون نوعاً من القتال يجمع بين المصارعة والملاكمة . ومن أنواع الرياضة البدنية التى لها شأن فى هذا الدور أيضاً ، السباحة والصيد خارج معاهد التعليم .

إذا بلغ الغلام هذه المرتبة ارتفعت عنه سلطة المعلم ورقابته ، ولكنه يبقى خاضعاً لسلطة أبيه أو ولى أمره المسئول عن أخلاقه وسلوكه . كذلك يبقى خاضعاً لمجلس الآريوپاج[1] الذى له الحق أن نكل به ويعاقبه أشد العقاب ، إن هو استهان بقوانين البلاد أو انتهك حرمة الآداب . وقد كان لكل معهد من معاهد التربية البدنية الثانوية مراقب خاص من رجال الحكومة يراقب أعماله ، ويشرف على سلوك الأطفال فيه ، ويدعى مراقب الآداب . ولقد أحسنت التربية الأثينية كل الاحسان إذ راقبت الغلام كل هذه المراقبة ، لأنه فى أزمان مراهقته يجتاز دوراً من أشد أدوار الحياة خطراً ، وأولاها بالحيطة وشدة الاحتراس . ذلك لأن الطفل فى هذه السن يمنح من الحرية قسطاً وافراً قد تميل النفس الأمارة إلى استعماله فيما يفسد الآداب ويحطم الأخلاق . فى هذه السن ترفع عن الغلام قيود كثيرة ويخول الذهاب أنى شاء ، فيذهب إلى الأسواق وإلى أماكن القضاء ، وإلى المسارح والأندية ومعاهد الألعاب الرياضية ، ويتعلم شئون الحياة بالتجربة والاتصال بالناس .

حقاً لا ينال الحدث فى هذا الدور شيئاً من التربية العقلية التى تأتى من دراسة العلوم والفنون ، الا أنه بمخالطة الرجال ومحادثة الشيوخ يتعلم آداب الحديث وطرق

---

(١) الاريوپاج محكمة عالية أو مجلس عال أعضاؤه من الشيوخ ومن أعماله حماية القوانين والنظر فى المسائل الرئيسة ومراقبة أخلاق الأمة والاشراف على أعمال القضاء ومن حقوقه أن يقضى بالعقوبة أو الغرامة من غير أن يكون لقضائه مرد وهو من النظم التى وضعها صولون صاحب القوانين المشهورة فى أثينا

المناقشة والمجادلة ، ويحصل من وراء ذلك أيضاً على معلومات كثيرة فى الأخلاق والسياسة وشئون الاجتماع تزيد فى مواهبه العقلية ، وتؤهله للقيام بواجبه الوطنى .

دور الشباب

ينتهى الغلام من تعليمه الثانوى فى الثامنة عشرة من عمره ، وحينئذ يأخذه أبوه فيقدمه إلى الحكومة لتختبره ، وتَعُدَّه فرداً من أفراد الرعية الأثينية، فإذا استطاع الغلام أن يثبت أنهُ من دم أثينى محض ، وكان صحيح البدن سليم العقل مرضى الأخلاق ، قَبِلَتْهُ الحكومة وسجلت اسمه فى سجل الرعايا الأثينيين. وقدمه نائب الملك إلى الأمة فى محفل جامع . فإذا نال الغلام هذا الفخر العظيم جهزه أبوه برمح وترس ، وان كان أبوه من الذين اشتهروا فى الحروب نابت عنه الحكومة فى ذلك . ثم خُوِّل أن يذهب إلى مذبح المعبود أجْلُورَسْ ليحلف يمين الإخلاص للآلهة والحكومة والتقاليد الأثينية القديمة . واليك صيغة هذه اليمين :

أقسم بالآلهة لا أُدنس هذه الأسلحة الطاهرة المقدسة ، ولا أفِرُّ من أصحابى فى الحروب . أقسم بالآلهة لأهبن نفسى للمعابد والممتلكات العامة ، ولأقاتلن لأجلها منفرداً ومع الجماعة . أقسم بالآلهة لأخدمَنَّ الوطن ، ولأحسنن إليه ، اكثر مما خدمنى وأحسن إلىَّ ، ولأُطيعن القضاة وأولياء الأمر فى البلاد ، ولأراعين القوانين الحاضرة ، والشرائع التى تجتمع الناس عليها فيما بعد . أقسم بالآلهة لأحمين القوانين والشرائع ، ولأحارب منفرداً ومع الجماعة كل من أراد إفسادها أو حاول العبث بها من الناس ، ولأنصرن دين آبائى وأجدادى . وإنى أشهد على ذلك آلهتنا أجْلُورَسْ وإنْيَالِيَسْ وأَرِيس ، وزُيُوسْ وثَلُو وأُكسُو وهِيجِيمون .

إذا أقسم الشاب هذه اليمين خضع خضوعًا مباشراً لقوانين البلاد ولكن لا تخوله الحكومة حق التدخل فى الشئون المدنية ، لأنه لا يزال فى نظرها حدثاً لم تكمل تربيته ولم يتم تمرينه ، ولذلك تعده فى هذا الدور جنديًا تحت الخبرة والتمرين ، وتبقيه سنتين كاملتين يَراض فيهما على الاعمال الحربية فيمضى السنة الأولى منهما فى ضواحى

أثينا حيث يعيش عيشة الجنود ، ينام فى العراء ، ويقوم بحراسة المدينة ، ويُدْعَى الى الخدمة العسكرية إن دعت الضرورة الى ذلك . وفى آخر السنة يتقدم إلى امتحان عامّ فى طرق الكفاح واستعمال السلاح ، فان نجح نقل الى حصن من الحصون القائمة فى حدود المملكة ، وعهد اليه بأعمال الشرطى فى بلاد الريف ، وكلف أن يدرس طبيعة بلاد أتيكا دراسة متقنة . فاذا انقضت السنة الثانية تقدم لامتحان عامّ آخر ، يسمى امتحان الرعوية الأثينية ، فإن نجح فيه أصبح مستكملاً لصفات الرعوية الصحيحة ، وأصبح أهلاً للحقوق المدنية الكاملة .

الرعوية الأثينية

لم يكن الأثينى لتنقطع عنه عوامل التهذيب بمجرد أن يصير رجلاً له جميع الحقوق المدنية ، بل كانت وسائل التربية تحيط به فيستفيد منها فى جميع أدوار حياته ، فالتمثيل وهندسة البناء والنقش والتصوير وبقية الصناعات اليونانية القديمة ، كانت جميعها تُقَدِّم له أمثلة عالية وأغراضًا نبيلة تستميله إلى العمل . والمشاكل المدنية والمباحث الأدبية والأعياد الدينية ، كانت عونًا له على تكميل معارفه ، وإرهاف مداركه ، وتجميل نفسه بالأخلاق العالية والسجايا الفاضلة .

كانت قوانين البلاد هنا لا تقضى على الأثينيين أن يأكلوا على الموائد العامة ، أو أن يشتركوا فى تربية الأطفال وتعليم الغلمان ، كما قضت القوانين فى إسبرطة ، ولكنهم كانوا دائمًا يعملون على إسعاد وطنهم وترقية حكومتهم ، بفضل ما انغرس فى نفوسهم من الرجولة الصحيحة والوطنية الصادقة .

تربية البنات

كان الأثينيون يغفلون تربية البنات قصداً ، إذ كانوا يرون أن الغرض من التربية إنما هو إعداد النشء للحياة العملية والقيام بواجب الوطن ، وأن الرجال وحدهم هم الجديرون بهذه الحياة وهذه الواجبات دون النساء ، ولذلك وجب تعليم البنين وإهمال البنات .

كانوا يذهبون إلى أن المرأة التى ينحصر واجبها فى أن تكون زوجة وأماً، لا تحتاج إلى معارف فوق ما يساعدها على تدبير منزلها، وكل امرأة تمتاز بشىء من العلوم والمعارف، وتظهر عليها مسحة من الذكاء والقدرة العقلية، تعد فى نظرهم ناقصة الآداب فاسدة الأخلاق.

تظل الفتاة الأثينية من مبدأ ولادتها فى جوار أمها لا تتعلم شيئًا سوى الخضوع والطاعة وغزل الصوف وحياكته، فإذا بلغت الخامسة عشرة من عمرها زوجها أهلها من غير أن تكون لها حرية فى اختيار زوجها، وحينئذ تلزم بيتها لا تخرج منه إلا فى الأعياد والمواسم الدينية. إنّ امرأة هذا نصيبها من التربية، لا يمكن أن تكون ذات عشرة مقبولة، أو منزلة رفيعة بين الجماعة، ولذلك كان الرجل يتزوجها لا لتكون شريكة له فى حياته، ولا لتكون عوناً له على حوادث الأيام، ولكن لتلد له أولاداً، ولتقوم له بحراسة المنزل وتدبير شئونه. ولأن الدين فوق ذلك يقضى على المرء بأن تكون له حليلة، قال أفلاطون «إذا تزوج الرجل فليس ذلك عن رغبة منه وميل الى الزواج، بل لان الشريعة تقضى عليه بذلك» وقال أحد شعراء اليونان الأقدمين «إن الزواج شر ولكنه شر لا مناص منه»

خواص التربية الأثينية القديمة والموازنة بينها وبين التربية الاسبرطية

تفوق التربية الإسبرطية التربية الأثينية القديمة فيما تخوله للنساء من الحقوق، وفيما تتخذه من الحيطة فى تربية الأطفال الصغار وتكوين أخلاقهم، ولكن الثانية على الإجمال أرقى وأنبل، إذ تُهَيِّئ للانسان فرصاً أوسع لتكميل ذاته وإنماء شخصيته. وذلك لأن القوانين الأثينية فيما عدا الأصول العامة للتربية، لم تكن لتقيد الآباء كل التقييد فى تربية أبنائهم، وكذلك لم تكن لتستخف بالحياة الشخصية للانسان، أو لتعمل على إخضاعها كل الاخضاع. بل كان الآباء أحراراً فيما يتخذونه من أساليب التربية وطرائقها. وكان الأثينى فى أيام شبابه ورجولته، يجد المجال واسعاً لتنمية معارفه ومداركه وتهذيب نفسه.

ومن أوجه الخلاف بين التربيتين أن التربية الإسبرطيـة كانت ترمى إلى إعداد الأطفال والغلمان للحرب والوطن ، أما الثانية فكانت تعمل على تكوين رجال كملت فيهم صفات الرجولة ليكونوا فيما بعدُ رعية قادرين مخلصين .

حقًّا كانت التربية الأثينية تختلف عن التربية الاسبرطية فى أساليبها وفى كثير من المسائل الفرعية الدقيقة ، ولكنها بقيت إلى منتصف القرن الخامس قبل المسيح تشبهها فى أغراضها ونظمها ومناهجها على وجه الاجمال ، ومن أجل هذا الوفاق كانت التربيتان الأثينية القديمة والإسبرطية فى جميع أدوارها ؛ تندرجان تحت التربية اليونانية القديمة التى كان الفرد فيها خاضعًا كل الخضوع للجماعة ، والتى لم تعن بشخصية الفرد إلا قليلا . وهذا على خلاف ما سيأتى لنا فى التربية اليونانية الحديثة التى تمثلها التربية الأثينية وحدها

التربية الأثينية فى العصور الحديثة

عصر الانتقال وخواصه

انجلت التربية القديمة فى العصر الخامس قبل الميلاد عن عصر كان من أزهى عصور التاريخ وأرقاها مدنية وحضارة . ولقد كانت أيام بركليس بين أيام هذا العصر كواسطة العقد أكثر بهجة وأعظم قيمة . كانت البلاد تموج برجال العلوم والفنون من الساسة والمهندسين والمصورين والمؤرخين والشعراء والخطباء والفلاسفة . كان فيها من الساسة ثِمِسْتُكْلِيس وبركليس الغنيان عن الوصف والتعريف ، ومن المصورين فِدْياس و مِيرُون اللذان تنبىء أعمالهما عن علم ومهارة وحسن ذوق ، ومن المؤرخين هيرُودُوتَس وتُوكِيدِيدِس أسبق الكتاب إلى وضع الأساس لفن التدوين التاريخى . ومن الشعراء سُوفُكْلِيس و إِقْرِبِيدِس اللذان بلغت الروايات الفاجعات بفضلهما غاية الاتقان ، ومن الكتاب أَرِسْتُوفَانِس صاحب الصيت الطائر فى تأليف الروايات الهازلة التى تعد أنفس المصادر لمعرفة النظم والعادات الأثينية فى آخر القرن الخامس قبل المسيح . و إليك

لِبْسياس سيد الخطباء المفوهين وأَنكْسَاغورَس وسقراط مَهْبطَى الحكمة والفلسفة . كذلك فى كل وجه من وجوه العلم ، وفى كل منحى من مناحى العمل ، كنت ترى لليونان فى ذلك العصر آثاراً شاهدة تدل على نبوغ لم تصل إليه الأمم قبل هذا التاريخ .

لم تكن التربية القديمة على فضلها فى وضع أساس هذه الحضارة ، وتهيئتها العقول لاكتساب العلوم والمعارف ، لتفى بمطالب العصر الجديد ، ولا لتناسب العصور المقبلة ، فإن الحياة فى هذا العصر الجديد كانت تجشم الفرد من الأعمال والأغراض ما لم تجشمه إياه الحياة فى العصور الغابرة ، وكانت تُهَيِّئ له فرصاً أعظم وأكثر لتنمية معارفه وتثقيف مداركه . فلا غرو أن تطلبت نوعاً جديداً من التربية ، تتجه فيه العناية إلى ترقية الفرد أكثر مما تتجه إلى ترقية الجماعة وخدمة الحكومة .

عوامل الانتقال

كانت عوامل الانتقال إلى العصر الجديد كثيرة . فمنها ما نتج عن الحروب الفارسية ، من امتزاج الحياة الأثينية بالحياة اليونانية على وجه عام ، ومن ازدياد العلاقات الاقتصادية ، واتساع الحركة التجارية ، وارتقاء الصناعات ، وكثرة الرخاء ، والاختلاط بالأجانب الذين نسلوا إلى المدينة من كل حدب ، فامتلأت بهم الطرقات ، وازدحمت بهم الأندية والمجتمعات ، ذلك الاختلاط الذى كان من نتائجه تبادل الآراء والأفكار والعادات والأخلاق تبادلا ساعد على ارتقاء معارف الأثينيين ، وإثارة قواهم الفكرية .

طال استماع الأثينيين للآراء الحديثة والأفكار الجديدة التى أتى بها الأغراب والأجانب ، فأخذوا ينظرون فيها ويوازنون بينها وبين عقائدهم ومذاهبهم الخاصة ، وينقدون كلاً نقداً صحيحاً ، ويرفضون ما تبين بطلانه وفساده من القديم والجديد على حد سواء ، ويحتفظون بما ظهرت صحته منهما ، فسَلِمت لهم بذلك عقيدة معقولة خالية من العيوب .

ومن عوامل الانتقال أيضاً ما حصل فى السياسة من استحالة الحكومة الأرستقراطية

سنة ٥٠٩ قبل المسيح إلى حكومة ديمقراطية ، تُخَوِّل جميع السكان فى أتيكا حق الرعوية ، وتمنحهم جميعًا حقوق الاشتراك فى أعمال الحكومة ، والانتظام فى مجالسها ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، ولا بين رفيعهم ووضيعهم . فانتعشت البلاد بهذه الحكومة ، واطرد فيها الرخاء ، وسنحت الفرص لنشر المعارف وترقية العقول .

ومن العوامل ذات الأثر العظيم ما حدث فى الدين والفلسفة والآداب من التبديل والتغيير . أما فى الدين فقد أعرض الناس عن الخرافات والخزعبلات الخاصة بالآلهة وما كان لها من التصرف المطلق فى شئون الكون ، وأخذوا يؤولون مظاهر الطبيعة تأويلاً يتفق هو والعقل والواقع . وأما فى الفلسفة فقد تحولت وجهة البحث والتنقيب ؛ فبعد أن كان الفلاسفة لا يعنون إلا بالطبيعة وآثارها ، والبحث فى حقائقهـا وغاياتها ، أصبحوا وهَمُّهم الأكبر مصروف إلى البحث فى الانسان وغاياته . وناهيك بما حصل فى الآداب من التغيير ، فقد كانت الروايات السائدة فى القرن السادس والنصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد هى الروايات الفاجعة ؛ أما فى النصف الأخير من القرن الخامس ، فقد سادت الروايات الهازلة ، وأصبحت لها الغلبة والكثرة . كان موضوع الروايات الفاجعة دائمًا دينيًّا أو أدبيًّا ، وكانت وقائعها تدور حول محور واحد ، هو النزاع بين الواجب والمنفعة الذاتية ؛ وقد كانت تمثل عادة فى المجتمعات والأعياد الدينية . أما الروايات الهازلة ، فهى روايات ظاهرها هزل وباطنها جد ؛ تختار وقائعها من الحوادث الحاضرة التى تقع بين ظهرانى القوم ، وموضوعها دائمًا سياسى أو اجتماعى ، وقد كانت وسائلَ لنقد الأخلاق والعادات ، والتعريض بما فشا بين الناس من أنواع الرياء والخداع والحمق والطمع ، وبما هو واقع فى الحياة العملية من تغلب المنافع والمصالح الذاتية على الفضيلة والواجب .

صحب كل هذه التغيرات تغير فى سلوك المرء وأخلاقه ، فبعد أن كانت الأخلاق القديمة قائمـة على النظم المرعية فى المدينة والمنزل وعبادة الآلهة ، جاء نوع جديد من الأخلاق أساسه العقل والمصلحة الذاتية . وكان من نتائج ذلك أن فشا الإلحاد ،

وفسدت الآداب ، وصار الناس أحراراً فى سلوكهم ، لا يَحتشمون ولا يتقيدون بنظام أو قانون . أصبح الأطفال على ما قرره الكاتب اليونانى أَرِسْتُوفَانِس ذوى خبث ودهاء ، قد فسدت نياتهم ، ونضب ماء الحياء من وجوههم . وأصبحت الحلائل جامحات ، عاصيات ، مبذرات ، غير عفيفات . وأصبح البعول وقد أهملوا منازلهم ، وأغفلوا حقوق الزوجية ، وعاشوا لأنفسهم لا غير . أما رجال الوطن فقد تحولت وجهتهم إلى جمع المال وكسبه من الطرق الشريفة وغير الشريفة ، لا يبالون بما يناله من عار وسمعة سيئة . وأما الموالى فقد تعودوا العصيان والكسل ، وقل فيهم الولاء والإخلاص . وإن أردت الاجمال ، فقل فسدت شخصية الانسان ، وتمشت فى طرق الغواية والضلال .

مطالب العصر الجديد من التربية

اقتضت التغيرات السياسية والاقتصادية والخلقية والأدبية التى جاء بها العصر الجديد تغييراً كبيراً فى التربية يرمى إلى أمرين ، أولهما أن يؤخذ الفرد بقسط وافر من حرية الفكر والعمل ، يناسب الحرية الواسعة التى ظهرت فى عالم السياسة ، وثانيهما أن يربى تربية أنبل من التربية القديمة ، تقدره على الانتفاع بالفرص التى أتاحها العصر لتثقيف مداركه وإثراء معارفه ، وترقية شئونه ، لذلك اتسعت مناهج التربية ، وانفسح فيها المجال للخطابة والمناظرة الضروريتين للنجاح فى الأعمال السياسية والاجتماعية . ولقد أتيح للبلاد فى هذا العصر طائفة من المعلمين ، أخذوا على أنفسهم هداية الشعب والأخذ بيده إلى هذه الغايات ، تلك هى طائفة السفسطائيين .

السفسطائيون

هم طائفة جديدة من المعلمين ظهروا فى البلاد ، ونصبوا أنفسهم لترقية شئون التربية والعدول بها إلى النحو الذى يناسب العصر الحديث . وأكثر هؤلاء من أهل المستعمرات الذين انتجعوا البلاد وجابوا الآفاق ، فأكسبتهم الأسفار الطويلة خبرة بالحياة السياسية

والنظم الاجتماعية ، و بصرا بمظاهر الطبيعة وقواها ، وعلما بكثير من المسائل العصرية العامة التى كثر فيها الجدل والمناقشة . فاستطاعوا بذلك أن يتدبروا التربية الأثينية القديمة ، ويروا عيوبها وقصورها فى إعداد النشء لما تقتضيه الحياة الجديدة فى العصر الجديد . ثم أخذوا ينشرون دعوتهم ، ويدَّعون أن فى قدرتهم أن يقدموا لشبان المدينة نوعًا جديداً من التربية يناسب الوقت ، ويقدر المرء منهم على أن يكون له فى عالم السياسة والاجتماع شأن أىّ شأن .

ولقد زاولوا التعليم واختلفت طرائقهم فيه أيما اختلاف ، فمنهم من كان تعليمه صورياً لا ينفع فى تربية الملكات ، ولا يكاد يخرج عن تلقين نتف صغيرة من المعارف ، وجمل من القول مصوغة صوغًا متينًا ، أو خطابات ومقالات مطولة ، يدبجها المعلمون ويحفظها التلاميذ ، ليلقوها فى فرص خاصة تعرض لهم فى الدفاع عن أنفسهم أمام القضاء وفى مواقف أخرى عامة . ومنهم من كان تعليمه حقيقيًّا متقنًا ، يأخذ تلاميذه بدراسة العلوم الطبعية ، والموضوعات السياسية والاقتصادية العصرية ، ويمرنهم على بلاغة المنطق وحسن الإلقاء فى الخطابة والجدل .

كانت هذه الطائفة مُبغَّضَة إلى اليونانيين المفكرين ، ولا سيما المحتفظين منهم بالتقاليد القديمة . بغضها اليهم صفتان فيهم ، الصفة الأولى ادعاؤهم أنهم ذوو كفاية نادرة ودراية واسعة فى كل موضوع من الموضوعات التى وصل اليها علم الانسان ، والثانية أنهم كانوا يتقاضون أجوراً على التعليم ، حتى لقد وصل بهم الاعجاب بالنفس ، والرغبة فى المال ، أن ادعى كثير منهم أن فى استطاعتهم أن يزودوا الحدث بمعارف غزيرة واسعة فى أى علم أو فن أراد ، وأن يكسبوه ما شاء من القدرة العقلية إذا أجزل لهم العطاء . وادعى آخرون أكثر من ذلك ، فقالوا إن فى قدرتهم أن يمرنوا الحدث على الجدل والمناظرة وإقامة الحجج ، بحيث لا تعرض له قضية أو موضوع إلا وفى استطاعته أن يأخذ كلا من طرفيه ، فيؤيده بالبراهين النيرة الساطعة .

جاءت هاتان الصفتان مناقضتين للمبادئ والأخلاق التى جرت عليها الحياة

اليونانية من قديم ، فالادعاء العريض ينافى ما جبل عليه اليونان من الاحتشام والتواضع وتوقير الصغير للكبير . وتقاضى الأجور على التعليم ينافى ما ذهبوا اليه من أن تقويم الخلق الذى يعد أسمى أغراض التربية ، لن يتم إلاَّ إذا كانت الصلة بين المعلم والتلميذ قائمة على الإجلال والمحبة الخالصة ، لا على المال والنفع المادى . لذلك لم يكن عجباً أن مقت الناس هذه الطائفة ، وامتلأت صدورهم ضغناً وحقداً عليها كما ظهر ذلك فى الرسائل والمقالات التى كتبها أدباء العصر الذين يحبون القديم و يحتفظون به . ولم يكن عجباً أيضاً أن أسرع أفلاطون وكثيرون من رجال الفلسفة والحكمة فى ذلك العصر الى تمييز أنفسهم عن هذه الطائفة الممقوتة ، على الرغم من اتفاقهم و إياهم فى كثير من المبادئ والمذاهب . ولكنهم فعلوا ذلك رغبة فى اكتساب رضا القوم ، وفراراً من المقت الذى نزل بتلك الطائفة .

آثار السفسطائيين فى التربية

كان الغلمان والمراهقون فى معاهد التربية البدنية الثانوية أسرع الناس إلى الأخذ عن هذه الطائفة ، لشدة تعلقهم بالحياة السياسية ، ولأنهم رأوا أن التمرينات البدنية التى يؤخذون بها فى هذه المعاهد لا نفع لها فى إعداد الانسان لأعمال السياسة ، ولذلك أعرضوا عنها كل الاعراض ، واقبلوا على دراسة البلاغة والمحاورات الكلامية وطرق الإقناع ، فزاد ذلك فى طلاقة ألسنتهم بقدر ما أضعف من أبدانهم . وقد كان السفسطائى إذا ظهر فى الاسواق ، أو فى شوارع المدينة ، أو فى منزله ، اجتمع هؤلاء الغلمان عليه ، ليستفيدوا من معارفه وتجاربه وحِكَمه ، وليأخذوا عنه طرقه فى الجدال والمناقشة . على أن نفوذ السفسطائيين لم يقتصر على طبقة المراهقين فى معاهد التربية البدنية فحسب ، بل تعداهم الى الشبان والفتيان الذين دخلوا دور الرجولة ، والى صغار الأحداث فى المدارس الابتدائية . واليك تأثيره فى المدارس الابتدائية ،

أصبحت التمرينات فى ميادين المصارعة لا يقصد منها تعويد التلاميذ خفة الحركات واحتمال المشاق ، وكسب المهارة ، وتنمية القوى المختلفة تنمية متكافئة ، ليكون ذلك أجدى

فى تكوين رجال أقدر على خدمة الوطن ، بل يراد بها كسب الصحة ، وتعديل صورة البدن ، ولطف الحركات ، ليكون ذلك ذريعة الى إسعاد الفرد وملء قلبه بأنواع الغبطة والسرور ، ولذلك قلت مظاهر العنف والشدة فى هذه التمرينات كثيراً ، فَخُوّلوا الاستحمام بالماء الدفئ ، بدل الماء البارد الذى كان يشد عضلهم ، وينعش أبدانهم .

وأصبحت دراسة الآداب فى معاهد التدريس تتضمن فوق الأشعار الحماسية التى كان لها الشأن الأعظم فى التربية القديمة أنواعاً أخرى كثيرة من الشعر ، بين أدبية وخيالية وغنائية ، مع إسهاب فى الشرح ، ومناقشات مطولة غير مجدية فى معانيها ومغازيها . وصارت الموسيقى لا تعلم لأغراضها الدينية والوطنية السابقة ، وانما يتعلمها المرء ليسلى نفسه بنغماتها وألحانها ، وليظهر للناس مبلغ ما فيه من حذق ومهارة ، ولذلك لم تعد مقصورة على الأغانى السهلة الموقعة على القيثارة ذات الأوتار السبعة ، إذ قد كثرت أنواع المعازف ، فشملت المزاهر والمزامير والقياثير ذات الأوتار الكثيرة ، وغيرها من الآلات التى تزيد فى إنعاش النفوس ، والتى يحتاج الإيقاع بها الى مهارة عظيمة ، ولا يخفى ما يتضمنه كل هذا التغيير من إعلاء شأن الفرد وتقديم مصلحته على مصالح الجماعة

موقف السفسطائيين حيال المذهب الفردى .

كان لما انتهجه السفسطائيون من أنواع التعليم آثار ظاهرة فى نصرة المذهب الفردى الذى يدعو الى استقلال الفرد وحمايته من تدخل الحكومة فى كل شأن من شئونه . وقد ظهر ذلك جليًّا فيما اتفقوا عليه من إنكار الحقائق العامة والأصول الثابتة فى العلم والأخلاق ، إذ قالوا ليس من الحق فى شىء أن تؤول الحياة تأويلاً عامًّا بحيث ينطبق نظامها على كل فرد من الأفراد ، وانما الواقع أن حقائق الكون ومسائل الأخلاق خاضعة لحكم الفرد ؛ فالشىء الواحد حق عند من اعتقد أنه حق وباطل عند من اعتقد أنه باطل . واستدلوا على ذلك باختلاف الآراء فى المعقولات ، واختلاف الاحساس فى المحسوسات ، كإدراك البصر من بَعُدَ عنه صغيراً ، ومن قرب منه كبيراً ، وكإدراك المحموم حلو المطاعم مرًّا ، ومن هنا قال بُرُوتاجوراس أحد زعمائهم المشهورين « إن

الفرد مقياس كل شيء » ، يريد بذلك أن الحقائق تختلف باختلاف الأفراد ، وأن الحقيقة الواحدة لا يمكن تأويلها تأويلاً عامًّا. فعلى مذهبه لا يكون الصدق من الأخلاق الحميدة إلا عنـد من اعتقد ذلك وسلَّم به ، وليس تمديد الحرارة للأجسام صحيحًا إلا عند من يري ذلك و يعتقده . ولا يخفى ما لهذا المبدأ من التأثير القوى فى تمجيد شأن الفرد ، واحترام شخصيته ، والاعتراف بوجوده وجوداً مستقلاً عن وجود الجماعة .

كان لغلو السفسطائيين فى نصرة المذهب الفردى آثار سيئة فى الحياتين الخلقية والدينية على ما قدمنا ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر ما كان لتعليمهم من الفضل فى تمهيد السبيل لوضع نظم التربية الحديثة التى نهضت بالأثينيين ، ووصلت بهم الى درجات رفيعة من المدنية والحضارة .

المعارضون للسفسطائيين من أنصار النظام القديم .

لما رأى الناس ما انحطت اليه الأخلاق والآداب ، وما صار اليه الدين من الضعف والانحلال ، وما سرى فى الجماعات من أنواع الفساد ، هبُّوا لمقاومة السفسطائيين ومعارضة مبادئهم ومذاهبهم السلبية التى تطعن فى القديم ، وتهدم من نظمه وأساليبه ، ولا تبنى بناء جديداً . وقد قامت طائفة من كبار المفكرين وأنصار النظام القديم ، فنادوا بالرجوع الى الحالة القديمة ، وقرروا أن لا علاج لهـذه الأدواء إلا بجعل الفرد كما كان تابعًا للحكومة ، قائمًا على خدمتها ، لا مصلحة له بجانب مصلحتها ؛ ومن هؤلاء إسْخِلْيُوس أبو الروايات الفاجعة، وأرستوفانِس أقدر كتاب الروايات الهزلية فى أثينا، و إكزِينيفون أحد الفلاسفة المشهورين .

الفلاسفة ومذاهبهم فى التوفيق بين القديم والحديث .

رأى جماعة من كبار الفلاسفة فى العصر أن يَقِفُوا موقفًا بين السفسطائيين وأنصار النظام القديم ، وأن يعملوا على إصلاح شئون التربية بالتأليف بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . نظرت هذه الطائفة فى المذهبين معًا ، فوجدت أن السفسطائيين على حق فى

دعواهم أن العقائد والتقاليد القديمة بما تتضمنه من الخرافات الدينية والنظم الاجتماعية ومناهج التربية وأغراضها، أصبحت عتيقة لا تناسب الزمن، ولا تساعد المرء على النهوض بنفسه الى ما ينشده من الكمال الذاتى ، ولكنها من جهة أخرى وافقت أنصار المذهب القديم فى وجوب رفض المبادئ السفسطائية ، لأنها مبادئ سلبية محضة ، تنقد القديم وتقوض أركانه ، ولا تبنى فى مكانه بناء جديداً ؛ ورأوا أن أمثل الطرق أن يضعوا نظاماً جديداً للتربية يكفل مصالح الحكومة وخدمتها ، و يعمل على إنهاض الفرد وتقوية شخصيته ، وأول من وقف هذا الموقف ثلاثة من أشهر الحكماء والفلاسفة فى البلاد اليونانية ، وهم سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس .

سقراط

منشؤه ومرباه

هو أول الفلاسفة الذين اتخذوا موقفاً بين التربية القديمة والتربية الجديدة ، وأول من نصب نفسه للتعليم العام من الحكماء الأثينيين . ولد بجوار أثينا فى قرية حقيرة تدعى أولوبيس . وعاش من سنة ٤٦٩ الى ٣٩٩ ق . م ، وكان أبوه نقاشاً ، فتعلم صناعة النقش منه ، واحترف بها زمناً ثم صَدَف عنها . وأقبل على دراسة الفلسفة ، فاشتغل بها ونبغ فيها نبوغاً عظيماً ، وأصبحت له فيها مذاهب وطرائق تفوق ما كان للأقدمين منها.

فلسفته العملية

كان الفلاسفة قبله يُعْنَوْن كل العناية بالبحث فى المملكة السماوية ، وفى القوى الطبعية ، والمظاهر الكونية ، وفى خلق العالم على وجه الإجمال . أما هو فقد رأى أن هذه موضوعات منتهى العلم فيها الظن ، وأنها أمور لا تأثير لها فى سعادة الإنسان . وذهب إلى أنَّ صرف القوى العقلية فيها ضرب من ضروب الجنون . ولذلك حَوَّل نظره إلى الحقائق العملية ، والمسائل الإنسانية ، معتقداً أنها أنفع أنواع الفلسفة . وقصر مباحثه على الموضوعات الإلهية والخلقية والسياسية والاجتماعية ، فأخذ يحاور الناس فى الخير والشر ،

فى العدل والظلم ، فى الشجاعة والجبن ، فى السَّرَف والتقتير ، فى الأعمال الشريفة والأعمال الوضيعة ، فى الوطن ومحبته ، فى حقوق الفرد وحقوق الجماعة ، إلى غير ذلك من الموضوعات الأدبية التى لها أكبر مساس بحياة الإنسان وسعادته . ولقد أصاب الأقدمون إذ قالوا « إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض » .

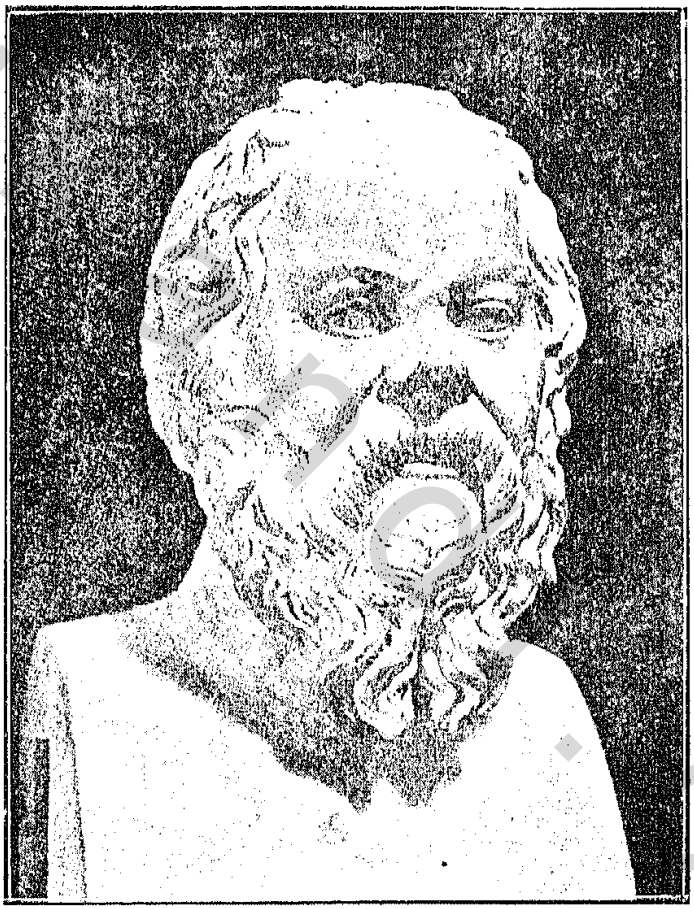

سقراط

وجوه الشبه والخلاف بينه وبين السفسطائيين

كان سقراط يشبه السفسطائيين من وجوه كثيرة . كان يرى رأيهم فى الغض من شأن التربية القديمة ، ويجهر بقلة صلاحها ، وكان مثلهم يروح ويغدو مع الشبان يناقشهم ويبحث معهم فى الموضوعات الخلقية والاجتماعية . ومن أوجه المماثلة أيضًا

أنه كان يرى رأيهم فى أن الفضيلة تكتسب بالتلقين والتعليم ، لا بالطرق العملية والتمرين على العادات القديمة . ولذلك كان أرستوفانس فى طعنه على السفسطائيين يحشره فى زمرتهم ، و يعده فى طليعتهم . والحق أنه ليس منهم ، فقد كان يختلف عنهم فى أمور كثيرة ، فهو أثينى من دمٍ أثينى ، وهم أغراب نزحوا إلى المدينة من المستعمرات والجهات النائية . وكان فوق ذلك يحتفظ بالأدب الأثينى المَرْعِيّ فى التعليم ، فلم يأخذ جُعلاً ، ولم يقبل هبة من تلاميذه على فقره وحاجته ، وكان يقول « عجباً لمن صناعته تعليم الفضيلة كيف يجعلها مغنما ؟ أفلا يكفيه أن يجد من تلاميذه صديقاً ، ويرى من غرسه رجلاً فاضلاً ؟ » . أما السفسطائيون فكانت غايتهم من التعليم جمع المال وكسب العيش . ومن أوجه الخلاف أنه كان يمقت الادعاء الكاذب الذى بغّض السفسطائيين إلى الأثينيين ، فلم يَدَّعِ العلم ، ولم يَدَّع القدرة الواسعة فى التعليم ، بل كان على العكس من ذلك كثير التواضع ، يحترم العلم و يسعى وراءه ، و يقول دائماً إنه شاعر بجهله وقلة درايته . وقد كانت بواعث الاشتغال بالتعليم مختلفة بينه و بينهم أيضاً ، فبواعث السفسطائيين جمع المال ، و إقبال التلاميذ ، وحب الفخر والظهور ، أما سقراط فلم يدعه إلى التعليم إلا اعتقاده أن المدينة فى حاجة إلى نوع جديد من التعليم يؤثر فى إصلاح حالها وتقويم شبانها .

كذلك خالف سقراط طائفة السفسطائيين فيما ذهبوا اليه من إنكار الحقائق العامة ، وادعائهم أن الفرد مقياس كل شىء ، وأن الحق ما رآه الفرد حقّاً ، والباطل ما رآه الفرد باطلاً ، وقرر أن هناك قواعد عامة وحقائق ثابتة تنطبق على كل الأفراد ، وتصلح لكل الأزمان ، وتقاس بها أعمال الإنسان ؛ فالعدالة والمروءة والعفة مثلاً لا تتغير حقائقها على حسب ما يرى الإنسان و يظن ، و إنما هى المبادىء الأولى والأصول الثابتة التى يجب أن تتضمنها بعض الأعمال الإنسانية ، والتى يلجأ اليها الفرد فى مدح أعماله ، و إقامة الأدلة على أنه لم يَعْدُ فيها شاكلة الصواب ، وذلك أساس ما ذهب اليه من أن العلم هو الفضيلة ؛ وهى من عقائده الكثيرة التى أورثته العظمة والمنزلة السامية بين المفكرين من

المربين . وهنا يجدر بنا أن نشرح ماذا أراد بقوله « العلم فضيلة » . لم يُرد أن مجرد العلم بالفضيلة يضمن للإنسان أن تكون جميع أعماله صحيحة صائبة من الوجهة الخلقية ، وإنما أراد أن الرجل الذى لا يعرف الخير لا تستحق أعماله أن تعد فاضلة .

مذهبه فى الفضيلة

إذا سلمنا أن الأعمال الفاضلة أساسها العلم ، لم يكن لنا مَفَرٌّ من موافقته فيما ذهب إليه من أن الفضيلة من الأشياء التى تؤخذ بالتلقين ، وأن الواجب تلقينها للمتعلمين ، وهو بمذهبه هـذا يخالف أنصار التربية القديمة الذين يرون أن مصدر الفضيلة التعود والأعمال الصالحة .

لم يقتصر سقراط على إثبات الرابطة بين العلم والفضيلة ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فبين أن العلم الصحيح ميسور لكل إنسان ، وأن من واجب الفيلسوف أن يساعد الناس على تحصيل العلم ، ولذلك أخذ يبذل الوسع فى القيام بواجبه ، وقد رأى أن خير الطرق أن يعلم النشء طرق التفكير ، ويهديهم سواء السبيل فى استنباط الحقائق ، لا أن يشغل حوافظهم بشذرات من العلم ، ونُتَف من المعارف لا قيمة لها فى تربية العقول وتهذيب المدارك . ومن أجل ذلك رغب عن طرق السفسطائيين فى التعليم ، فلم يحاضر ، ولم يخطب تلاميذه ، ولم يُعْن بالقاء الدروس ، بل اتخذ لنفسه طريقة خاصة نسبت إليه ، تلك هى طريقة المحاورة .

طريقته فى التعليم

لسقراط طريقة فى التعليم تدعى الطريقة السقراطية ، وهى طريقة استنباطية ذات مرحلتين . المرحلة الأولى مرحلة التهكم أو التجاهل . وذلك أن سقراط كان يرى من الضرورى أن يزعزع أولاً ما عند صاحبه من اليقين الذى لا أساس له . ولذا لم يعمد إلى مفاجأة أحد بعلمه كما كان يفعل غيره من العلماء وأهل المعارف الواسعة . وإنما كان يمشى فى الأسواق ، ويجول فى الطرقات ، يدعي أنه جاهل ، وأن شعوره بجهله شديد ،

وأنه ساعٍ وراء الحقيقة يلتمسها عند أهل المعرفة ، فإذا صادف رجلاً منهم تلطف له فى الحديث ، واستدرجه إلى كلمة أو حقيقة ، ثم سأله أن يشرح له معناها ، و يبين له ما يعرف من أمرها ، فيندفع الرجل الى الإجابة اندفاع السيل ، ظاناً أنه يعرف كل شيء عنها . فاذا ذكر الرجل ماعنده ، أخذ سقراط يتأمل فى إجابته وما أسرع أن يظهر له مغايبها وقصورها فيرجع الرجل الى إجابته يتلافى خطأه ، و يتدارك أغلاطه ، حتى اذا ظن أن الاجابة أصبحت سليمة خالية من النقص ، أخذ سقراط يتدبرها مرة ثانية ولا يلبث أن يُظهر فيها معايب من جديد . وتستمر الحال على ذلك وقتاً طو يلاً ، حتى يرى الرجل قصوره وعجزه ، ولا يجد بدًّا من الإذعان بأنه لا يعرف الموضوع معرفة صحيحـة كما كان يخيل إليه فى بدء الأمر . وحينئذٍ يجد سقراط الفرصة سانحة للمرحلة الثانية ، وتسمى مرحلة توليد الأفكار . وذلك أن سقراط يرجع بصاحبه وقد اعترف بعجزه ، وتاقت نفسه الى شهود الحقيقـة ، فيلقى عليه أسئلة سديدة تفتح مداركه ، وتستميله الى البحث من جديد ، و يبين له الطريقة المثلى فى التفكير ، حتى يصل بنفسه الى الحقيقة ، فيجدها ناصعة خالصة من كل شائبة .

والمتأمل فى الطريقة السقراطية يجد الطالب فيها يمر بثلاث مراتب متتابعة .

(١) اليقين : ويراد به اليقين الذى يبتدئ به الطالب من غير أن يكون له أساس صحيح .

(٢) الشك : ويراد به ما يداخل الطالب من الريب فى عقائده وآرائه بعد المحاورة . و يصاحبه عادة ميل نفسانى شديد إلى معرفة الحقيقة والبحث فيها .

(٣) اليقين : ويراد به اليقين الذى انتهى اليه والذى أساسه التفكير الصحيح .

وقد شرح العلامة جون أدَمْس أستاذ التربية فى جامعة أكسفورد طريقة سقراط فى التعليم بنحو ما تقدم ، ثم أتْبَعَ شرحه بأمثلة تطبيقية نذكر واحداً منها على سبيل الإيضاح ، قال (مع تغيير يسير اقتضاه الحال) :

هب سقراط قد استطاع العودة الى الحياة بعد رقدته فى قبره ثلاثة وعشرين قرناً ،

واستطاع التكلم بالعربية ، ثم أخذ كعادته يَغْشَى الأماكن العامة ، فصادفه طالب من طلاب المدارس يستريض فى حديقة من حدائق المدينة وعليه أمارات الزهو والغرور بعلومه ومعارفه . إن سقراط فى هذه الحال لا يتردد فى أن يتقدم الى هذا الطالب فيتلطف له فى الحديث ، ويوجه نظره الى الروض وجمال منظره وما يرى بين أشجاره وأزهاره من الطيور والحشرات ، حتى اذا أنِس بصاحبه وأنس به صاحبه ، فاجأه بسؤال لا تظهر فيه أمارات التعمد فقال : —

سقراط : ما الذى يراد بالحشرة يا صاحبى ؟ طالما سمعت الناس يذكرون الحشرات ويتكلمون عنها ، وطالما تاقت نفسى الى معرفتها معرفة صحيحة .

الطالب : الحشرة ! غريب ذلك ياسيدى ! لقد كان يخيل إلىَّ أن الناس جميعًا يعرفون معنى الحشرة . الحشرة هى — أمهلنى قليلاً — ثم ينظر الى نحلة تتنقل فوق أزهار الروض ثم يقول : نعم . الحشرة حيوان صغير له أجنحة (١) .

سقراط : ينظر الى ما بعد سور الحديقة ، فيرى دجاجة فى الطريق ثم يقول : إذاً ياصديقى لا بد أن تكون تلك الدجاجة التى نراها فى الطريق حشرة ، لقد كنت الى اليوم أعتقد أنها ليست بحشرة .

الطالب : تظهر عليه أمارات الغضب قليلاً ثم يقول : إن الدجاجة ليست من الصغر بحيث تُدْعَى حشرة . انها كبيرة جدًّا بالإضافة الى الحشرات .

سقراط : يتقبل الاجابة بشىء من اللطف والدعة ، ثم يقول : إذاً الحشرة حيوان صغير جدًّا وله أجنحة (٢)

الطالب : تبدو عليه علامات الارتياح ويقول : نعم

سقراط : اذاً لا بد أن تكون الطيور الطنَّانة حشرات لأنها من الصغر بمكان .

الطالب : يضيق صدره ويقول : لا — الطيور ليست بحشرات مطلقًا .

سقراط : إذاً الحشرة حيوان صغير جدًّا له أجنحة وليس من فصيلة الطيور (٣)

الطالب : تظهر عليه أمارات الارتياح مرة ثانية ثم يقول : نعم

سقراط : دخلت بالأمس حانوتًا فرأيت فيه صناديق صغيرة مكتوبًا على كل منها « مسحوق كِيتِنْج ذو الأثر الفعَّال فى إبادة الحشرات » ثم رأيت على كل صندوق صور حيوانات صغيرة ليست من فصيلة الطيور ، ولكن لم يكن لواحد منها أجنحة (منها البق والبراغيث الخ) ، وإنه ليخيل إلىَّ الآن أنهم أخطئوا كثيراً فى تسمية هذه الحيوانات حشرات ، فانها لا أجنحة لها . وهل يعقل على حسب ما قررناه الآن أن تكون الحشرة بغير أجنحة ؟

الطالب : يضيق صدره جدًّا ، ويرى أن سقراط ليس إلاّ رجلاً ثقيلاً يألف المناقشة والجدل ، ثم ينظر فى وجهه ويتأمل فى شفتيه الغليظتين ، وعينيه الجاحظتين ، وأنفه الأفطس ، ورأسه الأصلع ، ويعجب كيف أنه لم يلاحظ فيه تلك الطلعة السيئة من قبل . ثم يقول وهو ممتلئ غضبًا ، نعم هى حشرات يقينًا ، وكل إنسان يعرف ذلك ، أتريد أن تقول إنك لا تعرف أنها حشرات !

سقراط : عجبًا عجبًا ! — ماذا نقول الآن فى تعريف الحشرة ؟ أنقول إنها حيوان صغير جدًّا له أجنحة وليس من فصيلة الطيور وربما لا تكون له فى بعض الأحيان أجنحة . إن هذا منتهى التناقض ، ولا أكذبك يا سيدى إذا قلت لك إننى لا أزال أجهل حقيقة الحشرة .

الطالب : يداخله نوع من الإلهام ، ويَحْضُر ذاكرتَه شىء مما قرأ فى كتب المطالعة ، ثم يقول فرحًا : لقد اهتديت — الحشرة حيوان صغير يبتدئ كالدودة ، ثم ينمو قليلاً قليلاً ، حتى يصير فى نهاية أمره فَراشة .

سقراط : إذاً ما المدة التى يجب أن تنقضى حتى تصير حشرات كِيتِنْج أنواعًا من الفَراش ، إنى رأيت صور بعضها بغير أجنحة كالبق وغيره ، وكان يخيل إلىَّ أنها تبقى كذلك أبداً .

الطالب : يا للشقاء — لقد سئمت — انك مولع بالبحث عن أغلاط الإنسان وخطئه فى اجاباته ، بالله خبرنى أنت ما هى الحشرة حتى تستريح وأستريح ؟

سقراط : كأنك نسيت بداءة حديثنا أيها الصديق . ألم أخبرك أنى لا أعرف حقيقتها ، ولو أنى كنت أعرفها ما سألتك عنها ، ومع ذلك دعنا نبحث فى الأمر معاً ، علنا نهتدي الى حقيقتها . إن خير الطرق فى البحث أن نختار ثلاث حشرات أو أربعاً من أنواع مختلفة ، ثم نضاهى بعضها ببعض ، لنرى أوجه المشابهة بينها ، — ما الحشرات التى تختارها ؟

الطالب : لنختر الفَراشة والنملة والعنكبوت والخنفساء

سقراط : حسن هذا ، ولكنى سمعت عرضاً من أحد الأساتذة الإخصائيين أن العنكبوت ليست حشرة ، على أنى كنت أعتقد مثلك أنها حشرة ، ومع ذلك فلنأخذها فى بحثنا ، ونضمها إلى تلك الأنواع التى نعتقدها حشرات ، لنرى وجه الخلاف بين هذه وتلك ، فإن ذلك يساعدنا كثيراً على معرفة حقيقة الحشرة.

وهنا يأخذان فى الفحص ، وتدور بينهما المحادثة ، ويكثر سقراط من طرح الأسئلة التى تفتح للطالب أبواب البحث ، ولا يزالان كذلك حتى تتضح لهما الحقيقة جلية ، يجدان أن العنكبوت والحشرة متفقتان فى أن كلا منهما حيوان حَلَقى ، يتركب جسمه من حلقات متصل بعضها ببعض ، ولكنهما تختلفان فى أمور كثيرة ، فالعنكبوت ناعمة الجلد لَيِّنَتُه ، ولها ثمان سيقان ، ولا أجنحة لها مطلقاً . أما الحشرة فجلدها خشن متصلب ، وسيقانها ست لا غير ، ولها دائماً أجنحة أو آثار أجنحة .

آثاره فى مناهج الدراسة وأساليبها

كان لسقراط فى التربية تأثير عظيم من جهتين ، الأولى أنه أصبح الاهتمام بالمادة العلمية بفضله شديداً ، وأصبح الناس يعظمون من شأن العلم ، ويتسابقون إلى تحصيله على مثال لم يعهد من قبل . والثانية أنه غض من أساليب السفسطائيين فى التعليم ، وهى تلك الأساليب التى كانت ترمى إلى تلقين المعارف بإلقاء المحاضرات والدروس العامة على التلاميذ ، وقال إنها لا تجدى إلا قليلاً فى تثقيف العقول وتهذيب المدارك . ثم اختار الأسلوب التحاورى الذى يربّى فى النشء قوة التفكير ، ويستميله إلى البحث

والتنقيب . وذلك أنه كان يرمى دائمًا إلى تكوين عقول قادرة على استنباط الحقائق واستخراج النتائج بأنفسها ، لا إلى إنقاء المعارف التى هذبها الناس من قبل . ومجمل القول أن سقراط هو الذى يرجع اليه الفضل فى انصراف الناس عن الطريقة القديمة التى كانت ترمى إلى اتخاذ العمل وسيلة إلى تكوين الأخلاق ، وكذلك عن طريقة السفسطائيين التى أساسها إلقاء المحاضرات ، وتعلُّمهم بطريقه التحاورية التى عمادها المناقشة والاعتماد على النفس فى الوصول الى الحقائق .

عقيدته وصوته

كان سقراط يذهب الى أن للعالم فاعلاً مختاراً أوجده ونظمه . وكان ينهى الرؤساء عن الشرك وعبادة الأوثان . وكان يذهب أيضًا إلى القول بأزلية النفوس. يقول إنها كانت موجودة قبل وجود الإنسان على حالة لا نعلمها ، وهى وان اتصلت بالأبدان لا بد لها بعد الموت أن تعود الى حالتها الأولى . فلما سمع الناس ذلك منه حَذَّرُوه المَلِكَ وقالوا له انه يريد قتلك ، فقال لهم « ان سقراط فى حُبٍّ والملك لا يقدر الا على كسر الحُبِّ فالحب ينكسر ويرجع الماء الى البحر » وكان فوق ذلك يطعن على حكام المدينة ويُشَهِّر بجهلهم وظلمهم ويُعَرِّض بعدم كفايتهم ، فقُدِّم الى القضاء متهمًا بالإلحاد والحط من كرامة الآلهة وإفساد الاحداث واحتقار النظم السياسية المرعية فى البلاد ، فحكم عليه بالقتل ظلمًا وعدوانًا . وقبل أن يقتل أودع السجن فلبث فيه ثلاثين يومًا مكبَّلاً بالسلاسل والأغلال ، وفى كل يوم يزوره أصدقاؤه وتلاميذه ، فيقابلهم بصدر رحب ، ويتحدث معهم ويناقشهم مسائل العلم والأخلاق كعادته . وقد زارته أيضًا زوجته فبكت لديه بكاءً شديداً وقالت : أيقتلونك ظلمًا ؟ فقال لها : أوَ يُرضيك أن أقتل بحق ؟ ولما حان الوقت لتنفيذ القضاء جاء اليه صاحب السجن فقدم اليه كأسًا من السم كما كانت عادتهم فيمن يحكمون عليه بالموت ، فتناولها بثبات مدهش ، ثم شربها ومات .

مات والقوم فى أشد الحاجة اليه فى تقويم الأخلاق وتأليف القلوب واستنهاض الهمم لتخليص الوطن من يد الأعداء ، فكانت نازلة موته فادحة ، ومصيبة الشعب به عظيمة .

قضى سقراط ولم يترك كتبًا ولا رسائل تجمع آراءه وأقواله ، وكان يقول « دعوا العلم فى النفوس الناطقة الطاهرة ، ولا تقيدوه فى جلود الحيوان القذرة » وقد عُنِيَ تلميذاه أفلاطون و إكْزينيفون بآثاره فكتبا عن آرائه وطرقه كتابات واسعة مسهبة ، ولولاهما لذهب كثير من علمه وفلسفته

أفلاطون

مات سقراط فما وقفت حكمته ، ولا ذهبت فلسفته ، ولا بطلت طرائقه فى التعليم . فقد قام من بعده نفر من تلاميذه ، ساروا على نهجه ، وتابعوه فى رأيه ، فأتموا العمل الذى بدأه ، و بنوا على الأساس الذي وضعه ، وكان أعظمهم أثراً فى ذلك أفلاطون ابن أرسطون .

ولد هذا الفيلسوف فى أثينا سنة ٤٢٨ أو سنة ٤٢٧ ق.م . وعاش احدى وثمانين سنة تقريبًا . وكان فى بدء أمره يشتغل بالشعر ، ولكنه لما سمع سقراط يذمه و يطرى العلوم الحقيقية ، ألقى بما كان قد نظم منه فى النار ، وذهب اليه يبغى العلم و يطلب الفلسفة ، وعمره اذ ذاك عشرون سنة . فمكث معه الى أن بلغ الثامنة والعشرين .

ولما سيق سقراط الى المحاكمة وقضى عليه بالسجن والإعدام ظلمًا وعدوانًا ، حزن أفلاطون حزنًا شديداً ، ولم يطق البقاء فى أثينا ، فغادرها مملوءاً غيظًا وحقداً ، وسافر فى طلب العلوم . فرحل إلى إيطاليا والقيروان ومصر وصقلية ، وامتدت رحلته ثلاث عشرة سنة عاشر فيها الفلاسفة والكهنة . وأخذ عنهم الحكمة والعلوم الرياضية . ثم عاد فى سنة ٣٨٦ إلى أثينا ، وأنشأ مدرسته المسماة (أقاذيميا) أو المجمع العلمى . أنشأها فى بساتين كانت له هناك ، وأقام بها ستًّا وثلاثين سنة يعلم الطلاب ضروب الفلسفة وأصول العلوم ، وهم مشاة بين الأشجار وجداول الميـاه . وقد نبغ على يديه كثير من

الفلاسفة منهم ارسطوطاليس وغيره . وفى هذه المدة الطويلة ألف اكثر كتبه .

سار أفلاطون سيرة أستاذه فى الفلسفة وبنى عليها ؛ ولكنه عدّلها وأدخل اليها من وجوه التغيير شيئًا كثيراً ، حتى لقد أصبحت له فلسفة خاصة به تمتاز عن فلسفة سقراط وتدعى الفلسفة الأفلاطونية . ولا عجب : فمن عرف أفلاطون ومنشأه ودرس تاريخ حياته ، رأى مخالفته أُستاذَه أمراً طبعيًّا . فقد كان من الأُسَر الشريفة والبيوتات العظيمة

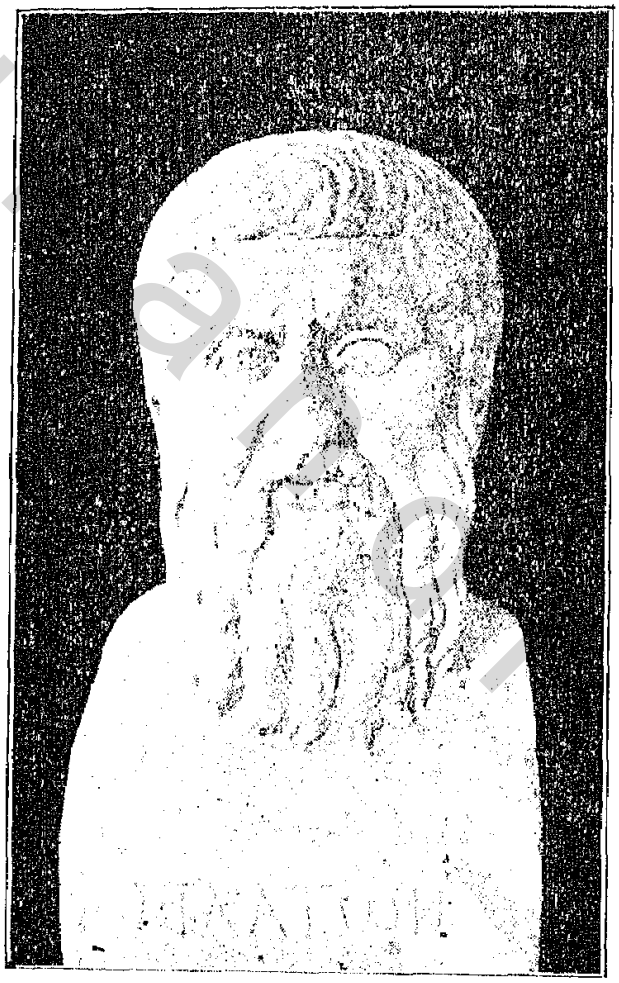

أفلاطون

فى اليونان . وكانت نزعته تسيطرية (ارستقراطية) محضة ، أما سقراط فكان شعبيًّا (ديمقراطيًّا) بمولده ونزعتـه . زد على ذلك أن أفلاطون قد عاقته روابطه الأُسَرِيَّة ومنزلته الاجتماعية أن يختلط بكل الطبقات ، أو يعاشر السوقة منهم معاشرة توقفه على حقائق أمورهم ، فحال ذلك بينه وبين إنصافهم وقَدْر مواهبهم العقلية حق قدرها . وقد

كانت لذلك آثار ظاهرة فى مذاهبه وآرائه فى التربية على ما سنبينه بعد .

مات أفلاطون سنة ٣٤٧ ق . م و بقيت فلسفته، واستمرت مدرسته بعد موته ثلاثًا وثلاثين سنة يديرها نفر من المعلمين الذين لهم به اتصال وثيق وروابط محكمة . وقد أخذ الناس فى هذه الفترة ينقبون عن مؤلفاته ورسائله ، وينسخون ما يصل إلى أيديهم منها . ولذلك يعتقد أهل العلم أن آثار أفلاطون قد وصلت إلينا كاملة ، لم تعبث بها الأيام كما عبثت بآثار غيره من الفلاسفة .

ومن مؤلفاته التى تركها كتابان عظيمان ، ألفهما فى آخر حياته ، وضمنهما آراءه ومذاهبه فى التربية . ذانكم الكتابان هما الجمهورية والقوانين . وغنى عن البيان أنه لا يعنينا من كتبه ومؤلفاته سواهما .

كتاب الجمهورية

هو أنفس كتبه وأعظمها شأنًا . وصف فيه المدينة الفاضلة ، وضمَّنه خطته فى التربية ، وهى خطة رشيدة تجمع محاسن التربيتين الإسبرطية والأثينية السائدتين فى عصره ، مع تهذيب وتعديل رآهما ضروريين . فأخذ عن التربية الإسبرطية تلك المبادئ التى تجعل للحكومة السيطرة المطلقة على شئون التربية والتعليم ، وتقصر غاية التربية على خدمة الحكومة ، وتوجب احترام العادات والقوانين القديمة المؤسسة على العواطف والميول النفسية . وأخذ عن التربية الأثينية ما كان فيها من الميل العظيم الى إصلاح الأحوال الاجتماعية بتوسيع مجال الحرية فى السياسة والفكر .

ولما كان من مبادئه فى هذه الخطة أن تكون غاية التربية إعداد طائفة من الناس لخدمة الحكومة ، كان من النتائج اللازمة ألاَّ تتسع التربية إلاَّ لهؤلاء النفر الذين سيتولون المناصب الحكومية فيما بعد ،

أما غيرهم من أهل الصناعات والحرف، فليست تربيتهم بمقصودة ، غير أنه لا مندوحة من انتفاعهم بمراتب التعليم الأولى التى يشترك فيها الجميع ، لا رغبة فى تعليم الجميع ، ولكن ليختار من بينهم من امتازوا بهبات عالية فى الجسم والعقل والخلق . حتى إذا انتهت

الأدوار الأولى من التعليم ، واختيرت الطائفة الصالحة للحكم ، سير بها إلى مراتب التعليم العالية وأُهْمِل الآخرون . وإليك نظام التربية الذى وضعه للمدينة الفاضلة على حسب ما ورد فى كتابه .

التربيتان الابتدائية والثانوية

يرى أفلاطون أن يُتَّبع فى تربية الأحداث إلى الثامنة عشرة من أعمارهم ذلك النظام الذى كانت تسلكه أثينا فى أيامه ، فَيُرَبَّى الأطفال أولاً فى المنازل إلى السابعة من أعمارهم ، ثم ينتقلون إلى مدارس المصارعة ومدارس التعليم الابتدائى ، ومنها الى معاهد التربية البدنية الثانوية . ولكنه أضاف الى هذا التعليم ما رآه ضروريًّا من وجوه الإصلاح ، وما استحسنه من وجوه التربية الإسبرطية وأغراضها . فمن ذلك أنه أوجب أن يكون تعليم الآداب فى المدارس والمنازل خالصًا من كل ما يقلل من شأن الآلهة ويحط من كرامة الأبطال الذين عاشوا فى الأزمان الغابرة ، وأن يكون أيضًا خاليًا من كل ما يغرس فى النفوس رذيلة الجبن ، أو يولد فيها الخوف من الموت . وفى ذلك يقول : « أول واجب علينا أن نختبر ما يؤلَّف من الحكايات والخرافات اختباراً دقيقًا ، ونختار منها الصالح الحسن ، وننبذ السيء الرذيل ، ثم نطلب الى الأمهات والمربيات أن يأخذن ما اختير لهن من هذه الخرافات الصالحة فيكثرن من قراءتها على الأطفال ، ويُقَوِّمن بها ما شأن من عقولهم وأخلاقهم » . ومن مذهبه أيضًا أن تُتَّبَعَ السُّنَّةُ الإسبرطية فى تعليم الموسيقى ، فيقتصر فيها على الأناشيد الدُّورِيَّة السَّهْلة ذات الصبغة الوطنية والدينية ، وعلى المعازف التى لا يجد العازف فى استخدامها كبير صعوبة . أما التربية البدنية فغايتها عنده تهذيب الأخلاق ، لا تنمية الأبدان ، وفى ذلك يقول « إن الموسيقى والرياضة البدنية فنان لا يقصد بأحدهما تربية الروح وبالآخر تنمية الجسم . وإنما الواجب أن تكون وجهة المربى فيهما معًا تهذيب النفوس وإصلاح الروح . »

التربية العسكرية

كل من لم يبرهن من التلاميذ أزمان تربيته الأولى على كفاية تامة وقدرة عظيمة ، تنتهى تربيته ببلوغه الثامنة عشرة من عمره ، ويتكون من هؤلاء طبقة الصناع فى المدينة . أما الذين تبدو عليهم أمارات الذكاء ، ويفوقون إخوانهم بفضل عقولهم وكريم أخلاقهم ، فانهم ينتقلون عند بلوغهم الثامنة عشرة إلى التعليم العسكرى ، فيقضون فيه سنتين . وهنا يعيشون فى المعسكر العامّ على نوع من الإخشيشان والتقشف ، يعملون على تنفيذ القوانين فى المدينة ، ويُدْعون الى مدافعة الاعداء إن دعت الحال . وفى أثناء هاتين السنتين تختبر عقولهم ومواهبهم الخلقية اختباراً أدق ؛ فمن وقفت مداركه وأخلاقه ، وظهر عليه أنه وصل الى غاية من الارتقاء الفكرى والخُلُقى لا يمكنه الوصول الى أبعد منها ، انتهت تربيته ببلوغه العشرين من عمره . وتكونت من هؤلاء طبقة الجنود الذين يحمون البلاد ويذودون عن حياضها . أما الذين تظهر عليهم دلائل النجابة والنبوغ ، فينقلون الى نوع من التربية أعلى وأرقى . ويتكون من هؤلاء طبقة الفلاسفة أو حكام المدينة .

الفلاسفة أولى طبقات الأمة بالزعامة والحكم

يرى أفلاطون أن فى الإنسان ثلاث قوى : القوة الفكرية ومركزها الرأس ، والقوة الغضبية ومركزها القلب ، والقوة الشهوانية ومركزها البطن ، وأن لكل واحدة من هذه القوى فضيلة خاصة بها ، فالحزم فضيلة القوة الفكرية ، والصبر فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، وأن صلاح المرء لا يكون الا اذا تغلبت قوته الفكرية على قوتيه الأخريين ، فكبح الفكر جماح الغضب وملك زمام الشهوة ، وأصبحت القوة الغضبية حليفة القوة الفكرية تسير فى خدمتها وتعمل بإرادتها ، وصارت القوة الشهوانية كذلك طائعة لها تأتمر بأوامرها ، فاذا تم ذلك وجدت الفضائلُ السابقة سبيلها الى الفرد ، فصلح حاله وتمت له السعادة . كذلك الحال فى المجتمع ؛ فإن فيه ثلاث طبقات تشبه قوى الإنسان الثلاث . فالقوة الفكرية فى الفرد يقابلها فى المجتمع طبقة

الفلاسفة الذين يسعون وراء الحقيقة ، وفضيلة هؤلاء الحكمة . والقوة الغضبية يقابلها طبقة الجنود الذين يهبون نفوسهم للحروب ، وفضيلتهم حماية الوطن ، والقوة الشهوانية يقابلها طبقة الصنّاع الذين يعملون فى الصناعات والمتاجر ، وفضيلتهم الإنتاج وجمع المال . فإذا قامت طبقة الفلاسفة بالحكم ، وأخذت طبقة الجنود تحمى البلاد على النمط الذى تسنه الفلاسفة ، ونهض الصناع بما يجب عليهم من إمداد الطبقتين الأوليين ، صلحت الأمة ووجدت سبيلها إلى الرقى والنجاح .

هكذا يرى أفلاطون أن الفلاسفة وحدهم هم الذين يصلحون للحكم ويحسنون قيادة الشعوب . وسر ذلك أنه يذهب إلى أن العلم أساس الفضيلة وعليه يتوقف صلاح الفرد وصلاح المجتمع ، كما ذهب إلى ذلك سقراط من قبل . ولكنّ سقراط يرى أن العلم ميسور للناس على اختلاف طبقاتهم ، ويراه أفلاطون حبساً على هؤلاء النفر الذين خصهم الله بحاسة سادسة هى حاسة إدراك الحقائق العامة ، وهؤلاء هم الفلاسفة . فهم وحدهم القادرون على الخوض فى المعقولات المحضة والحقائق العامة الثابتة . أما الطبقات الأخرى فمعارفهم لا تتعدى الحقائق الخاصة ، وهى فى نظره مجرد آراء لا علم صحيح .

ولأفلاطون فى وصول الحقائق والمعارف إلى نفوس الفلاسفة مذهب يخالف مذهب أستاذه سقراط ، فإنه يرى أن المطالب العرفانية لا تصل إلى النفوس بالنظر والاستنباط ، وانما تشرق عليها إشراقاً ، وتفيض عليها عفواً من غير جهد أو عناء . وأصل ذلك ماذهب إليه من أن النفوس كانت تعيش قبل اتصالها بالأبدان فى عالم آخر ، وهنالك وصلت إلى كثير من المعارف والحقائق ، وأنها لما اتصلت بالأبدان نسيت معارفها الأولى ، ولكنها فى أجسام الفلاسفة ، وإن شئت فقل فى أجسام الذين خصهم الله بحاسة إدراك الحقائق الكلية ، تعود فتذكر تدريجاً تلك المعارف القديمة إذا مر بها فى هذا العالم المادى مايشبه الحقائق التى كانت تدركها فى عالمها الأول .

إذا كان الفلاسفة وحدهم على رأيه هم أهل العلم ، وهم وحدهم الذين تشرق عليهم المطالب العرفانية والحقائق العامة التى هى أساس الفضيلة ، ومصدر الأعمال الصالحة ،

كانوا أحق الطبقات بالحكم ، وأصلحها لهداية الناس ، وأولاها بالرياسة والسيادة . ومن أقوال أفلاطون فى ذلك « لا سعادة للشعوب حتى يكون ملوكها من الفلاسفة ، ولا سبيل للحكومة الفاضلة التى وصفتهـا فى كتابى مالم تمتزج فى الولاة روح الفلسفة بروح السياسة »

التربية العالية

مما تقدم يُرى أن الحاجة كانت ماسة إلى نوع عال من التربية يليق بطبقة الفلاسفة الذين سيكونون حكام المدينة ورجال الأمر والنهى فيها . ومن هنا وجد أفلاطون نفسه مضطرًّا إلى ابتداع منهاج جديد عال تؤخذ به هذه الطبقة ، لأن التربية الأثينية فى وقته كانت تنتهى ببلوغ الطالب العشرين من عمره . وقد جعل أفلاطون منهاجه الجديد قسمين حتى لا يَدْرُسُ القسمَ الأخير منه إلاّ الذين أظهروا فى القسم الأول نبوغًا غير عادى ، وبرهنوا على رجاحة عقل ومتانة خلق . وقد جعل مدة الدراسة فى القسم الأول عشر سنوات يبتدئها الطالب وعمره عشرون سنة ، يدرس فيها أصول الحساب والهندسة السطحية وعلم الهيئة . ومن مذهبه ألا تأخذ الدراسة فى هذا القسم وجهة عملية البتة ، بل تكون دراسة نظرية محضة ، فإنها إن سلكت هذا المسلك نهضت بالقوى العقلية وأورثت صاحبها قدرة على الخوض فى المعقولات المحضة ، وساعدت على إشراق المعانى وتجليها عليه . ولَعَلَّ هذا مبدأ المذهب القائل بما للعلوم من الفوائد التهذيبية . ولا غرابة فقد كان أفلاطون زيادة على ما تقدم يدعو إلى تعليم الرياضة ، ويقول إنها تمرن فى الانسان قوة الحكم ، وتساعده على أن تكون أحكامه صحيحة سديدة .

فإذا انتهى الطلاب من دراسة هذه العلوم وبلغوا الثلاثين من أعمارهم ، اختير من بينهم أرجحهم عقولاً ، وأظمؤهم إلى العلوم والمعارف وأُخِذُوا بدراسة الفلسفة والمنطق واستمروا فى الدراسة إلى الخامسة والثلاثين من أعمارهم ، حتى إذا قطعوا هذه المرحلة الأخيرة من التعليم وأصبحوا فلاسفة قادرين ، خرجوا إلى المجتمع فاشتركوا فى أعماله

وساسوا أموره ، وتولوا مناصب الحكومة العالية ، وظلوا كذلك إلى أن يبلغوا الخمسين من أعمارهم ، وحينئذ يباح لهم أن يعتزلوا الأعمال العامة ، ويصرفوا ما بقى من أعمارهم فى مزاولة الفلسفة وتحقيق نظرياتها ، مستعينين على ذلك بما استفادوه من التجارب فى حياتهم العملية

تربية البنات

يرى أفلاطون أن تكون تربية البنات مماثلة لتربية البنين بحيث لا تختلف عنها فى شىء ما ، فيشاركنهم فى جميع أنواع التعليم ، ويدخلن معهم ميادين المصارعة ، ويتمرنّ على الأعمال البدنية العنيفة حاسرات عاريات كالرجال سواء بسواء . وذلك لأن واجب المرأة فى المجتمع على رأيه لا يخالف واجب الرجل ، فليس للرجال واجب وللنساء آخر . قال فى جمهوريته « ليس للرجال فى إدارة أعمال الحكومة واجبات خاصة ، وليس للنساء واجبات خاصة ، وإنما واجبات الرجال هى واجبات النساء ، فإن الطبيعة قد ساوت بينهما فى المواهب ، وما المرأة فى الحقيقة إلاّ رجل ضعيف » . وقال فى موضع آخر « أترانا نفرق بين إناث الكلاب وذكورها فنخرجَ الذكور وحدها للصيد ونكلفها وحدها حراسة الأغنام وندع الإناث فى المنازل بحجة أن الحمل والإرضاع يحولان بينها وبين مشاركة الذكور فى الصيد والحراسة ؟ . حقاً إنا لا نفعل ذلك »

لذلك يجب أن يكون النساء طبقات ثلاثاً كما هى الحال مع الرجال . فيكنّ فيلسوفات يشتركن فى أعمال الحكومة ويسسن أمورها ويتولين قيادة الأعمال ، ويكنّ جُنديّات يركبن الخيل ويلبسن لباس الحرب ويذدن عن الأوطان ، ويكن صانعات وتاجرات يكتسبن المال ويساعدن به الحكومة كلما دعت الحال . ولما كانت أعمال المنازل والعناية بالأطفال قد تعوقهن عن مشاركة الرجال فى الأعمال والواجبات ، رأى أفلاطون أن يعفيهن من ذلك ، فاقترح أن تكون معيشة الناس جميعاً مشتركة بحيث يأكلن على الموائد العامة ، وأن تتولى الحكومة تربية من يولد من الأطفال الأقوياء فى محاضن عامة ، أما المولود الضعيف الذى لا ترى الحكومة خيراً فى حياته ، فيقتل ويحرم الحياة

نقد كتاب الجمهورية

اتفق أفلاطون وسقراط على أن هناك فرقًا بين الحقائق العامة الثابتة والآراء الفردية الخاصة ، ولكن أفلاطون ذهب فى ذلك إلى غاية أبعد ، فعظم من شأن هذا الفرق حتى جعل للحقائق العامّة وجوداً خارجيًّا فوق وجودها الذهنى . وقد خالفه فى ذلك كثيرون من تلاميذه وأتباعه ، وذهبوا إلى أن المعانى الكلية والحقائق العامة لا وجود لها إلاَّ فى الذهن ، وحجج كل من الفريقين مبسوطة فى كتب الفلسفة المطولة ، والمقام هنا لا يتسع لتفصيل ذلك .

كان سقراط ديموقراطيًّا وكان من طبقة الصُّناع ، يختلط بالنـاس على اختلاف أجناسهم ، ويختلف إليهم جميعًا ، فيحادث بِركْليس قائد الشعب الأثينى وزعيمه ، ويحادث السوقة والعامة فى الطرقات والأندية . وقد ذهب إلى أن فى كل الطبقات استعداداً للعلم الصحيح ، وأن الحقائق العامة ميسورة للناس جميعًا . أما أفلاطون فقد كان شريف النسب ، أرستقراطى النزعة ، قليل الاختلاط بالطبقات الوضيعة ، كثير الاتصال بالفيثاغورسيِّين حتى أثر ذلك فيه كثيراً ، فخالف أستاذه سقراط ، وغضَّ من مقدرة الصناع والعامة ، وذهب إلى أن الحقائق العامة لا تُتَاح إلاَّ للذين وهب لهم الله المدارك العالية ، وخصهم بحاسّة سادسة هى حاسة العلم الصحيح .

لم يوفَّق أفلاطون كما لم يوفق أستاذه من قبل إلى كشف ما بين المعرفة والإرادة من الفرق . فذهب مذهب أستاذه فى أن العلم هو الفضيلة . وبنى على ذلك أن الفلاسفة وحدهم هم الذين يَصْلُحون لسياسة الناس وهدايتهم والقيام على أخلاق الأمة وسلوكها ، فأصبحت بذلك حكومتـه الفاضلة التى وضع نظامها فى كتاب الجمهورية ، حكومة أرستقراطية نَزَّاعة للرجوع إلى المبدأ القديم الذى يُقَدِّم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، ويعتبر الفرد تابعًا للحكومة خادمًا لها

إن نظرة يسيرة فى كتاب الجمهورية لكافية فى بيان أن أفلاطون لم يستطع أن يذهب فى تفكيره إلى أبعد مما ذهب إليه المحافظون أنصار القديم . فإنهُ فى هذا الكتاب

يبيح الرق ، ويهمل تربية الطبقات الدنيا ، ويبطل نظام الأسرة ، ويَحْرِمُ الأطفال الضعاف حق الحياة .

كان لكتاب الجمهورية تأثير عظيم فى الحياة الفكرية فى العصور التى أتت بعد ، إلاَّ أنه لم يكن له فى أثينا عَقِبَ ظهوره أثر ما فى التربيـــة أو فى النظم السياسية أو الاجتماعية . وقد كان الأثينيون يَعُدُّون ما فى الكتاب أفكاراً خيالية ، أنتجها عقل كبير بعيد عن الحياة الحاضرة الواقعة . وفى الحق أن أفلاطون لم يراع فى النظام الذى ابتدعه البيئة الحاضرة ولا أحوال الناس وظروفهم الخاصة ، ولم يؤسس خطته على أصول ثابتة وأمور واقعة ، وإنما أقامها على مشابهة ظهرت له بين الفرد والمجتمع . وهى مشابهة واهية الأساس ، فإن المجتمع ليس بنظام آلِيّ كالجسم الإنسانى ، وليست أفراده بحيث تتصل وتجتمع فتكوّن شيئًا واحداً كما فى القوى الإنسانية التى ذكرها . زد على ذلك أن الكتاب أهمل إرادة الإنسان ، فلم يَعُدَّها بين العوامل المؤثرة فى نظام الجماعة ، ومن هنا أخطأ كل الخطأ إذ ظن أن الأفراد يُدْفعون إلى أماكنهم الخاصة فى الحياة ، ويُحَرَّكون من مكان إلى آخر بغير مشيئتهم ، كما تُنَقَّل الحجارة فوق رُقْعَة الشطرنج . ومما أُخذ على الكتاب أيضًا أنه لم يُبَيِّن طريق الانتقال من النظام القديم إلى النظام الجديد ، وإنما وثب بالمجتمع إلى النظام الجديد دفعة واحدة ، كأن لم يكن هناك بين النظامين مجاز يعبره أو طريق يسلكه

إن كتاب الجمهورية على الرغم مما أُخذ عليه من أنه محض أخيلة لا تنفع فى الحياة العملية ، لا يستطيع أحد أن يجحد فضله أو ينكر قيمته فى التربية . فقد وضع للناس كثيراً من المبادئ الخلقية الرشيدة التى إن ساروا عليها نجحوا فى الحياة وسعدوا فيها . من ذلك أنه قرر أن سعادة الناس فى أن يهب كل إنسان حياته للعمل الذى أعدته له الطبيعة ، فإن الإنسان بذلك يصل إلى أبعد غاية ممكنة له ، ويقوم للجماعة بأكبر عمل مستطاع . وقد بنى على هذا المبدأ مبدأ آخر يعد من أكبر المبادئ فى التربية ، وهو أنه يجب أن تنحصر أعمال التربية فى أمرين ، أولهما تَعَرُّف الأعمال التى يصلح

لها الفرد بطبيعته أكثر من غيرها ، وثانيهما إعداده لهذه الأعمال ليقوم بها على أحسن حال . وذلك هو المثل الأعلى للتربية عند اليونان .

ومما يضاف إلى محاسن كتاب الجمهورية أنهُ أعلى من شأن النساء ، ووضع لهن تربية مماثلة لتربيـــة الرجال ، فكان أفلاطون بذلك كما كان فى أمور أخرى كثيرة متقدمًا على أهل عصره ، بل على أهل العصور التالية . ولذلك كانت جمهوريته تُعدُّ إلى وقتنا هذا من أنفس الكتب التى كتبت فى التربية وأغراضها .

كتاب القوانين

هو ثانى الكتابين اللذين وضعهما أفلاطون وضمنهما آراءه فى التربية . وقد وصف فيه مؤلفه نوعًا آخر من الحكومات الفاضلة ، ورسم خطة جديدة للسياسة والتربية تخالف الخطة التى رسمها فى كتاب الجمهورية . وقد جاءت المخالفة بين الخطتين شديدة جدًّا فى بعض المواطن ، حتى دعا ذلك كثيراً من الناس إلى الطعن فى نسبة هذا الكتاب إلى أفلاطون ، وأيَّد هؤلاء رأيهم بأن الكتاب أحط فى أسلوبه ومعانيه من سائر كتب هذا الفيلسوف ، ولا سيما كتاب الجمهورية ، إلاَّ أن هذا الرأى لم ينل تشجيعًا من الناس ، ولم يجد له أنصاراً كثيرين .

ألف أفلاطون كتاب القوانين فى سبع السنوات الأخيرة من حياته حين نَيَّفَ على السبعين ، وحين تغيرت عقائده بعض التغير ، وهو فى اعتقاد الكثيرين آخر كتاب ألفه ، فلا عجب أن جاء أحط فى أسلوبه وأنزل فى معانيه من كتاب الجمهورية .

والفرق بين الحكومتين اللتين وصفهما فى كتابيه ، أن الحكومة التى وصفها فى الجمهورية ، هى المثل الأعلى فى رأيه للحكومات الفاضلة ، والوصول إليها غير ميسور . أما الحكومة الثانية فهى أقرب حكومة مستطاعة إلى ذلك المثل الأعلى ، وقد عدل إليها حين رأى أن الأحوال فى أثينا لا تساعد على قبول النوع الأول من الحكومات ، وحين شاهد بنفسه خيبة التجارب التى عملت فى بعض المستعمرات لتكوين حكومة

فلسفية من الطراز الأول ، وقد شرح أفلاطون نفسه الفرق بين الحكومتين اللتين وصفهما ، فذكر أن أحسن الحكومات تلك الحكومة التى لا تسير على أنظمة دائمة وقوانين ثابتة ، بل هى التى يتولى شئونها حاكم عاقل حازم مستنير مستبد ، أو طائفة من الفلاسفة مملوءة علماً وحكمة . فإذا لم تكن هذه الحكومة مستطاعة فحكومة دستورية لها قوانين ثابتة تسنها الفلاسفة ، ويقوم رجال الحكومة على تنفيذها من غير أن يكون لهم الحق فى شىء من التعديل أو التغيير ، وهذه هى الحكومة التى وصفها فى كتاب القوانين ، ووضع فيها مكان الطبقة الحاكمه أو طبقة الفلاسفة ، أميراً وراثياً ، ومديراً للتعليم ، ومجلساً مختاراً من الأعيان والنبلاء . وطائفة منتخبة للقيام بأعمال الحكومة .

ولما كان كتاب القوانين كما تقدم لا يقتضى أن تكون هناك طائفة خاصة للحكم ، كانت خطة التربية الجديدة تخالف الخطة المرسومة فى كتاب الجمهورية ، فلم يكن فيها مكان للتربية العالية الفلسفية ولا لدراسة المنطق ، وأصبحت التربية فى أعلى منازلها لا تتعدى دراسة العلوم والرياضة من الوجهة الدينية على الطريقة الفيثاغورسيّة . وقد ترك أفلاطون فى كتابه هذا عقيدة الحقائق العامة التى دعته إلى قَصْر التربية والحكم على طائفة خاصة من الناس هى طبقة الفلاسفة ، وذهب إلى جعل التعليم حقاً مشتركاً ومتماثلاً بين جميع الطبقات على السواء .

وإنا لنستطيع أن نقول إن خطة التربية فى كتاب القوانين هى بعينها خطة التربية فى كتاب الجمهورية إذا حذفنا من هـذه الأخيرة كل ما يتعلق بالتربية العالية الفلسفية التى يؤخذ بها الشبان بين العشرين والخامسة والثلاثين من أعمارهم . وإن شئت إيضاحاً اكثر ، فقل إن الخطة الجديدة هى خطة جامعة لمحاسن التربيتين الإسبرطية والأثينية السائدتين فى زمن أفلاطون ، فهو فى خطته الجديدة من المحافظين الذين يدعون إلى الرجوع إلى القديم ولكن بعد إصلاحه وتهذيبه

تأثير أفلاطون فى التربية والحياة

كان لأفلاطون تأثير باق فى الحياتين الفكرية والعملية ، فالمجتمع الإنسانى الفاضل الذى وصفه فى جمهوريته ، والذى يقوم فيه كل فرد بالعمل الذى أعدته الطبيعة له ، لم يزل منذ العصر اليونانى إلى وقتنا هذا أحب موضوعات البحث بين الفلاسفة والمفكرين من الكتّاب . وقد كتب « تُومَاس مُور » و « فْرَنْسِيس بيكون » وغيرهما فى ذلك كتبًا مطولة شائقة . ومن آثار أفلاطون تأسيس المدارس الفلسفية فى أثينا ، ووضع النظم الرشيدة لأعمالها ، وتهذيب الخطط الدراسية التى سارت عليها المدارس قرونًا عدة بعد وفاته ، وتمحيص الفكرة اليونانية الخاصة بمعنى التربية الحرة الكاملة .

ويرى كثير من المربين أن المذهب التهذيبى الذى دعا إليه « جون لوك » ، يرجع أصله إلى ما أثر عن أفلاطون فى جمهوريته من أن المواد الدراسية التى تختار للتربية العالية الفلسفية ، لا تليق دراستها دراسة عملية ، وإنما تدرس دراسة نظرية محضة لتكون بذلك وسيلة إلى تهذيب القوى الفكرية .

ولكن الأشبه بالحق أن أرسطوطاليس هو أصل هذا المذهب ، فإنه منع فى كتاب السياسة أن تدرس العلوم دراسة عملية ، وحرّم المهارة الفنية فى الموسيقى وغيرها من الفنون ، وذهب فوق ذلك خطأً إلى أن للنفس قُوىً مستقلة متميزة يُستَطاع تهذيبها وتقويمها بأنواع خاصة من العلوم والفنون ، وهى نظرية فاسدة أظهر العلم الحديث بطلانها ، ونقض المذهب التهذيبى القائم عليها ، وسنفصل ذلك فى موضعه إن شاء الله .

أرسطوطاليس

سعَى أفلاطون سعيَه فى التوفيق بين النُّظُم اليونانية القديمة والحديثة ، فاستخلص منها نظاما مُبتكراً فى السياسة والتربية ، ليس بالقديم المحض ولا الحديث الخالص ، وأودعه كتابه « الجمهورية » . ولكنه رَكِب فيه متن الخيال ، وشرد عن الحقيقة شروداً ، فلم ينجح فى سعيه ولم يُثمر عمله . وقام من بعده تلميذه أرسطوطاليس ، فجانب

الخيال ما استطاع ، وسعى إلى التوفيق بين القديم والحديث من طريق الحقيقة ، واستنبط منهما نظاماً جديداً مبنياً على المشاهدة والعيان ، فكان فى ذلك أقرب إلى الإصابة من أستاذه .

صفحة من تاريخ حياته

ولد أرسطوطاليس سنة ٣٨٤ ق . م فى مدينة إسْتَاجِيرَا من بلاد مقدونية ، وكان والده طبيباً لملك المقدونيين « أَمِنْتَاس » الثانى جد الإسكندر بن فيليب المقدونى . وقد تُوُفِّىَ أبواه وهو صغير ، فكفله بعض أصحاب أبيه ، ودرس فى صغره من مبادئ الطب ما أهله أن يخلف والده فى صناعته ، ثم أهمل تلك الصناعة وأقبل على دراسة الفلسفة .

ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره ذهب إلى أثينا ، وكانت إذ ذاك كعبة الطلاب يحجون إليها من جميع الأقطار اليونانية . وكان أفلاطون غائباً عن المدينة وقت وصول أرسطوطاليس إليها ، ولكنه لم يلبث أن عاد إليها فلزمه أرسطوطاليس وأقبل على التلقى عنه . وقد شهد فيه أستاذه من قوة الذكاء وعظيم الاستعداد ما بهره حتى سماه « عقل المدرسة » . وكان إذا غاب وطلب التلاميذ من أستاذهم أن يتكلم ، قال لهم حتى يحضر « العقل »

مكث أرسطوطاليس فى أثينا عشرين سنة متصلة ، ساغ فيها كل الفلسفة الأفلاطونية ، وخالف أستاذه فى كثير من آرائه ومبادئه . وأسس فى تلك المدينة مدرسة يُعَلِّم فيها الشبان فنون الخطابة والبلاغة والمنطق ليُعِدَّهم ، للحياة العملية ، فتهافت عليها الشبان الأثينيون وانتفعوا بها كثيراً ، ولم يُلْهِه ذلك عن ملازمة أستاذه والأخذ عنه .

ولما مات أفلاطون سنة ٣٤٧ ق . م لم يستطع أرسطوطاليس أن يقيم بعده فى أثينا ، فغادرها وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان ، ومن بلد إلى بلد ، حتى دعاه الملك فيليب المقدونى إلى تأديب ولده الإسكندر ، فذهب إليه سنة ٣٤٣ ق . م . وكان عمر الإسكندر إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ؛ واستمر يؤدبه إلى أن بلغ السادسة عشرة

وقد أتيح له فى أثناء هذه المدة القصيرة أن يكوّن عقل الإسكندر تكوينًا فلسفيًّا قويًّا، وأن يُلَقِّنه مذاهبه الخاصة فى الفلسفة . وبعد أن مضى زمن التأديب، استمرت الصلة قوية بين الفيلسوف والأمير، ونمت بينهما المحبة .

وفى سنة ٣٣٤ عاد أرسطوطاليس إلى أثينا وعمره إذذاك خمسون سنة . ولم يكد يستقر بها حتى أسس مدرسته المسماة «لَيسيُوم» لأنها كانت قريبة من ملعب رياضيّ للأثينيين فى ظاهر المدينة يسمى بهذا الاسم . وقد مكث أرسطوطاليس يدرس فى هذه المدرسة ويدير شئونها نحواً من اثنتى عشرة سنة . وفى أثناء هذه المدة نضجت آراؤه، واتسعت فلسفته، وذاعت شهرته، ولُقِّب المعلِّمَ الأول . ولكنَّ موت الإسكندر سنة ٣٢٢ أوسع المجال لأعدائه، فثاروا به، ودبَّروا له المكايد، واتهموه بالفجور والإلحاد، فخَشِيَ على نفسه أن يبطشوا به كما بطشوا بسقراط من قبل، ففر من أثينا إلى كَلْسِيس، ومات بها فى السنة عينها وعمره ٦٢ سنة تقريبًا .

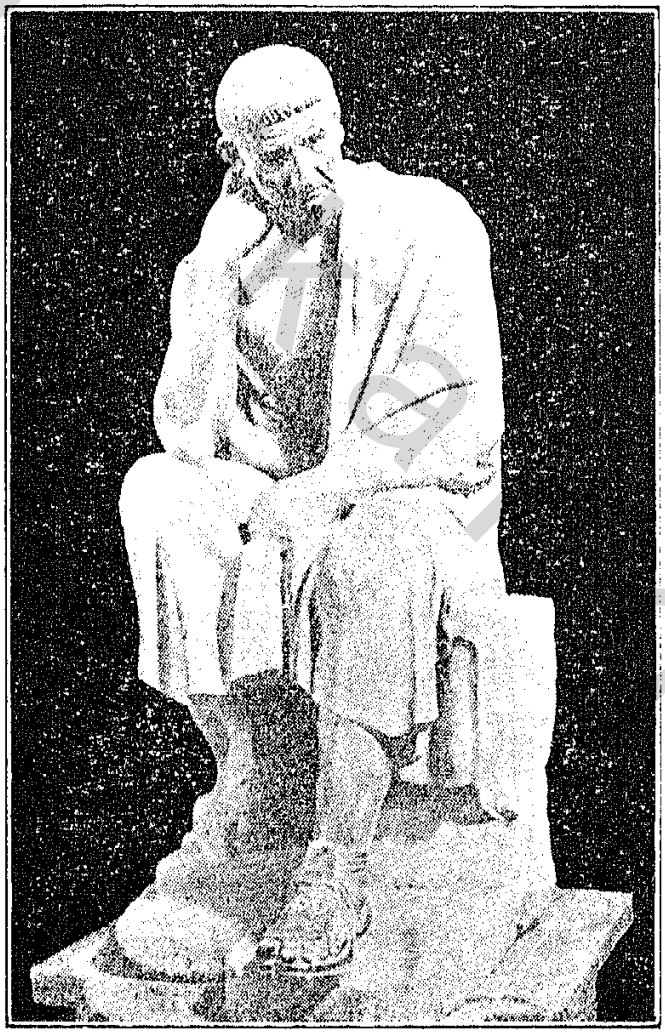

أرسطوطاليس

مؤلفاته

لم يهمل أرسطوطاليس تقييد آرائه وأفكاره كما أهملها سقراط ، ولم يختر لتقييدها تلك الأساليب التحاورية التى اختارها أفلاطون ، ولكنه دونها تدوينًا علميًّا ورتبها ترتيبًا فنيا ، وصاغها فى قوالب الكتب المهذبة المحكمة الوضع . وهى وإن فاتها جمال الأسلوب وزخرف الخيال اللذين تمتعت بهما الرسائل الأفلاطونية ، لم يفتها ما فات غيرها من الضبط والإحكام وتقصّى البحث . وقد كانت فوق ذلك تفوق رسائل أفلاطون فى معالجة الموضوعات معالجة علمية منظمة تُشعر بعظمة ذلك العقل الذى أنتجها وهذبها .

الاسكندر الأكبر المقدونى
(عن تمثال بدار آثار رومية)

وكان من عادة أرسطوطاليس ألاّ يصوغ أفكاره الصوغ الأخير حتى تنضج فى ذهنه ، وتصل إلى غايتها من الكمال والنمو ، إذ أنه كان يسعى إلى جمع الآثار المختلفة للعلوم والفنون وترتيبها ترتيبًا محكمًا ، ليكوّن منهـا دائرة علمية واسعة متماسكة الأجزاء ، وجهة النظر فى جميعها واحدة . وذلك نظام علمى يشبه نظام دوائر المعارف المعروفة عندنا ، إلاّ أن هناك فرقًا بين ما نعرفه الآن من نُظُم دوائر المعارف ، وبين ما أراده أرسطوطاليس . فدوائر المعارف الحديثة ليست إلاّ كُتُبًا تجمع شتيت المعارف من غير أن تعنى بربط بعضها ببعض . أما أرسطوطاليس فقد كان يرمى إلى استقصاء المعارف التى وصلت إلى العقل الإنسانى ، وربط بعضهـا ببعض ، وجمعها حول فكرة واحدة تكون بمثابة محور لها .

على أنه لم يستطع أن يُتِمّ هذا العمل العظيم الذى حاوله فى الاثنتى عشرة سنة الأخيرة من عمره .

ترك أرسطوطاليس مئاتٍ من الكتب على ما روى الراوون ، وقد ضاع أكثرها ، ولم يبق منها إلاّ نَيِّفٌ وأربعون ، كل واحد منها حجة قائمة على أن العقل الذى وضعه عقل نادر ، لم يشهد العالم كثيراً من أمثاله . وقد كتب أرسطوطاليس فى أكثر العلوم المعروفة فى أيامه ، فأكسبها رُوحًا جديداً ونقلها من حال إلى حال . كتب فى علم الحياة ، وفى علم وظائف الأعضاء ، وفى الطبيعة ، وفى علم النفس ، وفى الأخلاق والسياسة ، وَوَضَعَ علم المنطق وهذَّبه ووصل به إلى درجة من الإتقان عالية ، وقد تناوله الباحثون بعده فلم يستطيعوا أن يُضيفوا إليه أو يغيروا منه كثيراً . هذا إلى رسائل له فى موضوعات مختلفة أخرى ، وإلى آثار أدبية كثيرة ما بين خطب ومقالات وأشعار .

كتابا الأخلاق والسياسة

هذان هما الكتابان اللذان ضَمَّنَهما أرسطوطاليس آراءه ومبادئه فى التربية . وقد بين فى الأول منهما كيف يجب على المرء أن يسوس نفسه فى هذه الحياة ، ليصل إلى كماله المطلق ، وغايته الأخيرة التى لا غاية بعدها . ووصف فى الثانى النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى إن جرت عليها المدن ، سَهَّلت على الفرد سياسة نفسه ، وساقته إلى كماله وغايته من الحياة

كتاب الأخلاق

افتتح أرسطوطاليس كتاب الأخلاق بالبحث فى كمال الإنسان ، وخيره المطلق الذى تنتهى إليه جميع الخيرات . و بين أن الناس يكادون يتفقون على أن كمال الإنسان أو خَيْرَهُ المطلقَ الذى يسعى وراءه ، هو السعادة ، إلا أنهم يختلفون اختلافًا واسعًا فى ماهية هذه السعادة ؛ ثم شرح رأيه فيها شرحًا وافيًا ، فقال ما ملخصه :

إن كل موجود من حيوان ونبات وجماد له قوًى وملكات وأفعال ، بها يصير

ذلك الموجود هو ما هو، وبها يميَّز عن كل ما سواه؛ وله أيضاً قوى وملكات وأفعال، بها يشارك ما سواه، وأن كمال كل موجود أو سعادته إنما تكون فى صدور أفعاله التى تخص صورته عنه تامة كاملة. ولما كان الإنسان أحد هذه الموجودات، وجب أن يثبت له ما ثبت لها، فأفعاله الخاصة به من حيث هو إنسان، والتى لا يشاركه فيها سواه، هى تلك الأعمال التى تصدر عنه بحسب رويته وتمييزه. وكماله الإنسانى أو سعادته إنما تكون فى صدور هذه الأعمال عنه على وفق الفضيلة. فإنها إن لم تصدر عنه على وفق الفضيلة لم تكن كاملة تامة. وقد بسط العلامة ابن مسكويه مذهب أرسطوطاليس فى السعادة فى مواضع مختلفة من كتابه « تهذيب الأخلاق » فليرجع إليه من شاء.

بعد أن عرَّف أرسطوطاليس الخير المطلق الذى يسعى إليه الإنسان، أخذ فى تقسيم النفس والفضائل، فقسم النفس إلى ناطقة وغير ناطقة. وقسم غير الناطقة إلى القوة التى تكون بها التغذية والنمو، والقوة النزوعية التى يكون بها الاشتياق إلى الأشياء والانقباض عنها. والقوةُ الأولى لا رابطة لها بالنفس الناطقة مطلقاً، أما القوة النزوعية، فقد تسير بتدبير الناطقة، وقد تسير بغير تدبيرها، ففى الحالة الأولى تدخل فى القسم الناطق من النفس، وفى الحالة الثانية تندرج تحت غير الناطقة منها.

أما الفضائل فقد قسمها قسمين يلائمان قسمى النفس. أولهما الفضائل العقلية كالحكمة والذكاء والحزم وسرعة الفهم، وتسمى هذه الفضائل بفضائل النفس الناطقة. وثانيهما الفضائل العملية كالعفة والقناعة والسخاء والمروءة والنجدة، وتسمى فضائل النفس غير الناطقة. وقد تكلم أرسطوطاليس فى كتاب الأخلاق عن الفضائل العملية قبل الفضائل العقلية، لأنهُ يرى أن تُجْعَلَ الأولى أساساً لتحصيل الثانية.

ومن مذهبه أن لا شىء من الفضائل العملية بطَبيعىّ فى الإنسان؛ ولذلك يجب تحصيلها واكتسابها فى الصغر بالتلقين والتدريب. والقاعدة التى يجب أن يهتدى بها المربى فى أخذ الأحداث بهذه الفضائل، هى أن الفضائل دائماً أوساط بين أطراف، وتلك الأطراف هى الرذائل. فالميل النفسانى يكون فضيلة متى اعتدل فيه صاحبه،

ولم يدن به من طرفى الإفراط والتفريط . فإن جنح إلى أحدهما انقلب ذلك الميل رذيلة . وإليك الحكمة التى هى أم الفضائل ، فإنها وسط بين السفه والبله ، ويراد بالسفه استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغى وكما لا ينبغى . ويراد بالبله تعطيلُ هذه القوة واطِّراحُها . كذلك العفة فضيلة لأنها وسط بين رذيلتين ، هما الشره وخمود الشهوة ، ويراد بالشره الانهماك فى اللذات والخروجُ فيهـا عما ينبغى . ويراد بخمود الشهوة السكون عن الحركة التى تُسْلك نحو اللذة الجميلة التى يَحتاج إليها البدن ، والتى رَخَّص فيها الشرع والعقل . كذلك الشجاعة وسط بين الجبن والتهور .

بعد أن بحث أرسطوطاليس فى الفضائل العملية واستقصاها ، ذكر الفضائل العقلية التى هى فضائل النفس الناطقة ، وبين أن أعلى مراتب هذه الفضائل ، هى فضيلة التفكير والتأمل التى يمتاز بها الفلاسفة . وقد قرر فى آخر كتاب الأخلاق أن هذه الفضيلة العالية ، هى فضيلة الآلهة الذين لا يرضون أن يتنزلوا إلى ما دونها من الفضائل . ومن هنا كان الفلاسفة أقرب الناس وأحبهم الى الآلهة ، لأنهم يشبهونهم فى صفاتهم وأخلاقهم . وبينا نرى هذه الفضيلة العالية خاصة بالآلهة والفلاسفة لا يصل إليها سواهم ، نجد الفضائل العملية عامة ميسورة للناس جميعًا ، فلاسفة وغير فلاسفة .

كتاب السياسة

فى هذا الكتاب شرح أرسطوطاليس آراءه فى الحكومة الفاضلة ، وفَصَّل الأعمال التى يجب أن تقوم بها الحكومة فى سبيل تربية الأفراد ، حتى يحصلوا على السعادة التامة ، ويصلوا إلى ذلك الكمال المطلق الذى تكلم عليه فى كتاب الأخلاق . وقد ابتدأ ذلك بكلام طويل نقد فيه الآراء الاشتراكية والنُّظم الخيالية التى تضمنتها جمهورية أفلاطون ، فبين أن الحكومة التى وصفها أفلاطون ورأى فيهـا صلاح الفرد والجماعة حكومة خيالية لا سبيل إلى تحقيقها . على أننا لو فرضنا أنها ممكنة التحقيق وتحققت فعلاً لما كان لها من أثر فى تقليل الشرور ولا تكثير الخيرات كما زعم صاحبها . وإليك الآراء

الاشتراكية الخاصة بالنساء والثروة مثلاً ، فمن يقول غير أفلاطون بأن ما تجلبه من المنافع يُرْبِي على ما تأتى به من الشرور .

ولما فرغ من نقد الحكومة الأفلاطونية والبرهنة على فسادها وعدم صلاحها ، شرح آراءه فى الحكومة الفاضلة ، وقرر أن أصلح الحكومات ما كان للأفراد فيها أكبرُ حظ مستطاع من الحرية . ثم أخذ يبحث فى أشكال الحكومات ليرى أيها أفضل من هذه الوجهة ، فعرض جميع ما يعرف من أشكال الحكومات الواقعة وغير الواقعة ، واستنبط مما عرضه أن أشكال الحكومات الممكنة ستة ، ثلاثة منها حسنة ، وثلاثة سيئة ، فالأشكال الحسنة هى التى تعمل على إسعاد جميع الأفراد ، والأشكال السيئة هى التى تعمل على إسعاد طائفة خاصة . و إليك الأشكال الثلاثة الحسنة

(١) الحكومة المَلَكِيَّة التى يستقل بالحكم فيها واحد .

(٢) حكومة الأشراف التى يقوم بالحكم فيها جماعة من أماثل الناس وأفاضلهم

(٣) الحكومة الجمهورية التى يأخذ كل فرد من الأفراد فيها بنصيب من الحكم

أما الحكومات السيئة فهى الحكومات الثلاث السابقة مُخْتَلَّةً معتلة ، مشوبةً بأنواع من الفساد . ولِتَسَرُّب الفساد إليها سميت بأسماء مختلفة ، وها هى ذه على الترتيب المتقدم .

(١) الحكومة الاستبدادية ، وهى نوع فاسد من الحكومات الملكية

(٢) الحكومة الأِلِجْراشيَّة ، وهى التى يقوم بالحكم فيها الأغنياء وحدهم ، وهى نوع فاسد من حكومات الأشراف

(٣) الحكومة الديموقراطية ، وهى التى يقوم بالحكم فيها الفقراء ، وهى نوع فاسد من الحكومات الجمهورية

ولأرسطوطاليس فى ترتيب الحكومات من الأفضل الى الأسوأ مذهب خاص ، وهو أن أحسن الحكومات إذا دخله الفساد صار أسوأها ، وأن آخر الحكومات الفاضلة إذا دخله الفساد صار أحسن أنواع الحكومات السيئة . وعلى ذلك يكون ترتيب الحكومات من الأحسن إلى الأسوأ هكذا — (١) الحكومة المَلَكِيَّة (٢) حكومة

الأشراف (٣) الحكومة الجمهورية (٤) الحكومة الديموقراطية (٥) الحكومة الأليجراشية (٦) الحكومة الاستبدادية

فالحكومة الملكية على رأى أرسطوطاليس أحسن أشكال الحكومة وأفضلها فى تربية الأفراد على الحرية، وأخذهم بأوسع نصيب فيها. والحكومة الاستبدادية أسوأ الحكومات، لأنها أقلها فى منح هذه الحرية. وبينا يذهب إلى أن الحكومة الملكية أفضل الحكومات من الوجهة النظرية، إذا هو ينصح باختيار الحكومة الجمهورية، لأن الملك فى الأولى كثيراً ما يَسُوء حاله و يستَحِيلُ إلى حاكم مستبد ظالم، وكذلك الأشراف فى الثانية. أما الحكومة الجمهورية فأقل الحكومات تعرضاً للفساد والشرور.

بعد أن أظهر رأيه فى الحكومة الفاضلة، شرع يُفصّل أعمالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تُصْلِح من أحوالها، وتهيء السعادة لأبنائها، ومن بين هذه الموضوعات التى عالجها موضوع التربية. تناوله فى آخر الكتاب، و بين ما يجب على الحكومة أن تتبعه فى أمر هذه التربية، حتى ينشأ أفراد الشعب على الفضيلة، و يصلوا إلى السعادة التامة.

ولما كانت غاية التربية عنده هى الفضيلة، وكانت الفضائل على رأيه أيضاً قسمين، فضائل عملية وفضائل عقلية، وكانت الأولى وسائل يُستعان بها على الوصول إلى الثانية وجب ألاَّ تكون التربية كما كانت عند الإسبرطيين محض تمرينات عملية تنفع فى الحروب وشئون الحياة العملية، بل يجب أن يكون القسم الأعظم منها عقلياً محضاً، فإن الحروب يجب أن تتخذ وسائل للسلم، كما يجب أن تكون الأعمال وسائل للفراغ والراحة.

رأيه فى أقسام التربية وأزمانها

يبنى أرسطوطاليس رأيه فى أقسام التربية وتقديم بعضها على بعض، على ما ظهر له فى نشأة الطفل الجثمانية والنفسية. فهو يرى أن نشأة الطفل تسير فى ثلاث مراتب يُعقِب بعضها بعضاً على النحو الآتى. (١) المرتبة الأولى: النشأة الجثمانية وهى أسبق المراتب الثلاث فى زمنها. (٢) المرتبة الثانية: نشأة القوى النزوعية أو نشأة النفس غير الناطقة: (٣) المرتبة الثالثة: نشأة النفس الناطقة: وهى آخر النشآت الثلاث ظهوراً.

وليس ثمة حاجة إلى إقامة الحجة على أسبقية النشأة الجثمانية فإنها ظاهرة بدهية . أما نشأة النفس غير الناطقة ، فدليل أسبقيتها على النفس الناطقة : أن آثار الرغبة والإرادة والغضب تظهر فى الطفل عقب ولادته ، بخلاف آثار القوة الناطقة فإنها لا تبدو إلا بعد أن يكْبَرَ وتتقدم سنه . وعلى هذا الرأى قسم أرسطوطاليس التربية إلى ثلاثة أقسام تتفق مع مراتب نشأة الطفل ، وتجرى معها فى أوقاتها .

(١) القسم الأول : التربية البدنية ويجب أن تسبق النوعين الآخرين كما سبقت نشأة الجسم نشأة النفس بقسميها .

(٢) القسم الثانى : التربية الخلقية وتأتى ثانية فى الزمن كما أتت القوى النُّزُوعية

(٣) القسم الثالث : التربية الفكرية وتأتى آخراً كما أتت النشأة العقلية

وسنشرح لك آراءه فى كل قسم من الأقسام الثلاثة على حسب ما أثر عنه .

التربية البدنية

يرى أرسطوطاليس أن تبتدئ عناية الحكومة ببدن الطفل من قبل ولادته ، وذلك بأن تسن للأزواج قوانين خاصة ، تبين من يسوغ لهم أن يتزوجوا ومن لا يسوغ لهم ذلك ، وتعين سن الزواج للرجل والمرأة . ويرى أيضًا أن تسير الحكومة على ما تعودته من وأد الأطفال الذين يولدون ضعافًا أو مشوَّهين . وله فى غذاء الأطفال وملابسهم وتمريناتهم البدنية آراء سديدة تكاد تنطبق كل الانطباق على قوانين الصحة الموضوعة فى أزماننا الحاضرة ، وهى إن قرنت بما كان مألوفًا فى التربية اليونانية فى زمنه كانت أوفق وأكثر ملاءمة للطبيعة الإنسانية .

التربية الخلقية

تستمر التربية البدنية السابقة إلى السنة السادسة ، وهى تربية منزلية محضة ، ويُقْصد منها إعداد الطفل للتربية المدرسية التى تليها ، والتى تبتدئ من السنة السابعة إلى الحادية والعشرين . وتنقسم مدة التربية المدرسية بسن المراهقة إلى مدتين . الأولى منهما

خاصة بتربية القوى النُّزُوعيَّة أو النفس غير الناطقة ، و إن شئت فقل بالتربية الخلقية . والثانية خاصة بتربية القوى الفكرية أو النفس الناطقة ، و إن شئت فقل بالتربية العقلية .

و بينا يرى أرسطوطاليس أن يقوم الآباء على تربية أبنائهم من وقت ولادتهم إلى أن يبلغوا السادسة من أعمارهم ، يرى أن تهيمن الحكومة على التربية فيما بعد هذه السن كما قضت بذلك النُّظُم الإسبرطية . ويرى أيضاً أن تكون التربية عامة تشمل كل فرد من أفراد الرعية ، إلا أن الموالى والصناع لما كانوا فى مذهبه لا يُعَدُّون من الرعية لم تكن لهم إلى التربية من حاجة ، ولذلك قضى بحرمانهم إياها . كذلك قضى على النساء بمثل ذلك . وعاب أفلاطون إذ سوى بينهن و بين الذكور فى التربية ، وأوجب أن تقتصر تربيتهن على أنواع من التمرينات خاصة بتدبير المنزل وأعماله .

ومن آرائه فى التربية الخلقية أن يعنى بما يعرض على مسامع الطفل و يقع تحت أنظاره ، فلا يسمع إلاَّ جميلاً ، ولا يرى إلاَّ جميلاً . ومن أجل هذا أوجب أن يمنع الأطفال من مخالطة الخدم والموالى بقدر ما هو مستطاع ، وألا يرخص لهم فى شهود مجالس اللهو وحضور الروايات الهازلة .

أما مناهج الدراسة التى يصح أن يؤخذ الطفل بها قبل سن المراهقة . والتى تعمل على تكوين أخلاقه وتربية عواطفه وقواه النُّزُوعيَّة ، فتشمل الأعمال البدنية والموضوعات الأدبية والموسيقى ، على نحو ما كان مسلوكاً عند الأثينيين فى زمنه مع إصلاح وتغيير قليلين .

فالأعمال البدنية يجب أن تكون غايتها ضبط النفس ، وكبح جماح الشهوات ، وتجميل صورة الجسم ، وتكوين العادات الفاضلة ، لا مجرد القوة الجثمانية التى يتباهى بها المغرمون بالألعاب البدنية ، ولا الضراوة والقساوة اللتين يفتخر بهما الجنود ورجال الحروب ، فإنها إن قصد منها القوة الجثمانية فحسب ، كانت متعبة للأجسام شاقة على النفس . و إن قصد بها الضراوة وتقسية القلوب ، كانت مظهراً من مظاهر الوحشية القاسية . ويجب أن تتدرج هذه الأعمال فى صعوبتها ، وألا تبتدئ التمرينات العنيفة

أو الأطعمة الخشنة إلا بعد سن المراهقة بثلاث سنوات على الأقل

أما الموضوعات الأدبية وتشمل عند أرسطوطاليس القراءة والكتابة والرسم ، فيجب ألا تعلم من أجل منافعها المادية فحسب ، وإنما تعلم لأغراض نفسية أسمى وأعلى . فتُعلَّم القراءةُ والكتابة لأنهما وسيلتان لتزويد الفكر بأنواع العلوم والمعارف . ويُعلَّم الرسمُ لأنه يربّي فى الإنسان قوة الذوق ويساعده على تعرُّف الجمال .

أما الموسيقى فقد أسهب أرسطوطاليس فى شرح أغراضها وتفصيل فوائدها . فهى عنده العمدة فى تثقيف العقول ، وتعليلِ النفوس المكدودة ، وإثارةِ العواطف الكامنة وشَغْلِ أوقات الفراغ بأفضل أنواع المسرات ، ولها فى النفس تأثير أى تأثير . فمن النغمات والأناشيد ما يملأ القلب غبطة وسروراً . ومنها ما يُفْعمه همًّا وحزنًا . ومنها ما يستفز الإنسان ويُثير فيه ثائرة الغضب . ومنها ما يبعث على الجد والنشاط ويرغب فى العمل . ومنها ما يحبب إلى النفس الإخلادَ إلى الدعة والراحة . فهى تلعب بالنفوس وتنقلها من حال إلى حال . وإذا كان هذا عملها ، فهى إذاً من أقوى الوسائل وأجداها فى تربية النشء وتكوين أخلاقه .

بعد أن فرغ أرسطوطاليس من فوائد الموسيقى ، أخذ يبحث فى أمثل الطرق لأخذ الأحداث بها ، فبحث فى أى الأمرين أفضل فى التعليم ، أمجرد الإصغاء والاستماع إلى العازفين والمغنين ، أم التمرين العملى وأخذ النشء بالعزف والغناء الفعليين . ثم خاض فى أنواع المزاهر التى يسوغ استعمالها ، وذكر صنوف الأناشيد التى يحسن إنشادها والتغنى بها . وقد فضل فى تعليم الموسيقى أن يغنى الأطفال ويستعملوا المزاهر بأنفسهم ، وألا يكتفوا بالإصغاء ، فإن من لا يحسن فنًّا من الأعمال ، لا يستطيع نقده إذا صدر من غيره نقداً صحيحًا ، كما لا يستطيع أن يحكم عليه حكماً صادقًا . ومن آرائه ألا يُغالى الأطفال فى تعلُّمها حتى يصلوا فيها إلى تلك المهارة الفنية التى يصل إليها أهل الحرف ، فإن المهارة الفنية فى الموسيقى لا تليق فى رأيه بالرجل الحر المهذب .

التربية الفكرية

هذه آراء أرسطوطاليس فى تربية النفس غير الناطقة . وهى وآراؤه المتقدمة فى التربية الجسمية مبسوطة كل البسط فى كتاب السياسة . أما آراؤه ومذاهبه فى تربية النفس الناطقة ، فسبيلنا إلى معرفتها الحَدْسُ والتخمين ، فإن الكتاب ما كاد يصل إلى آخر مباحث التربية الخلقية ، حتى رأيناه قد انقطع فجأة دون أن يذكر كلمة عن هذه التربية العالية التى هى أسمى أنواع التربية عند اليونان . و يغلب على الظن أن الجزء الأخير من كتابه قد ضاع ولم يعثر عليه أحد ، أو أن أرسطوطاليس قد وقف عند هذه الغاية ، وقصد أن يعود إلى الكتاب مرة أخرى فيتمم بحوثه ويكمل موضوعاته ، ولكنهُ لم يوفق إلى تنفيذ عزيمته .

وأيًّا كان سبب انقطاع الكتاب فقد تركنا أرسطوطاليس دون أن يقرّر لنا مذهبه فى التربية الفكرية تقريراً صريحًا وما كان أظمأ النفس واشوقها إلى استطلاع آرائه ومبادئه فى ذلك ، فإن هذه التربية الفكرية هى أهم موضوعات التربية وأعلاها عند اليونان . على أننا إذا تقصينا البحث فى كتبه الأخرى ، استطعنا أن نستنبط أنه يوافق أفلاطون فى دراسة العلوم الرياضية فى هذا الدور الأخير دراسة عالية ، ولا سيما العلوم الهندسية والطبعية والفلكية . كذلك إذا تأملنا فى حياته وميوله الخاصة وما جرت عليه مدرستهُ فى أيامه وبعد أيامه ، غلب على الظن أنه كان ينصح أيضًا بدراسة المنطق وعلوم الحياة التى كانت لها المنزلة السامية فى نفوس تلاميذه .

مع هذه التربية النظرية العالية ، يرى أرسطوطاليس أن تسير إلى جانبها التربية العملية ، فيؤخذ الشبان بتمرينات فى الأعمال والواجبات الوطنية . وتشمل هذه التمرينات نوعين من الأعمال : أولها الأعمال الإدارية أو التنفيذية . وثانيهما الأعمال التشريعية والقضائية . و يتدرج الرجال من النوع الأول إلى النوع الثانى . وكلما تقدموا فى السن ، وجب أن تكون الأوقات التى تصرف فى النوع الثانى أكثر وأطول . ومن أظهرَ من هؤلاء نبوغًا فى المعارف الإلهية ، تقلد الوظائف الدينية ودخل فى زمرة القساوسة .

نقد كتابى الأخلاق والسياسة

حاول أرسطوطاليس فى حكومتــه التى ابتدعها وهذب نظامها ونصح للأثينيين بسلوكها أن يوفق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، وأن يضع حدًّا للفساد الذى ضرب بجِرَانِهِ فى البلاد اليونانية .وقد اعتمد فى جميع ما رأى ودبَّر على الملاحظة والعيان، فاستمد آراءه من الحقائق الواقعــة وجانب الخيال ما استطاع حتى لا تأتى حكومته كحكومة أفلاطون خيالية محضة غير ممكنة الوقوع . ولكنه على الرغم من ذلك أخفق فى سعيه وخاب فى أمله ، فلم يُفْلح فى التوفيق الذى أراده . وفوق ذلك جاءت حكومته بحيث لا يستطاع تحقيقها ، ولا إخراجها إلى عالم الحس والمشاهدة . والسر فى ذلك يرجع إلى أمرين :

أولهما أن الحكومات الصغيرة المستقلة التى استمد آراءه وأفكاره منها ، كانت قد انقضى عهدها ومضى سلطانها ، وأخذت دولٌ كبيرة واسعة السلطان تغلبها على مكانها وتقوم بالملك مقامها . وبذلك جاءت آراؤه عتيقة قديمة لا توافق الزمان .

ثانيهما أنه لم يبين طريقًا عملية لتنفيذ الإصلاح الذى رآه وأشار به ، فأصبح لذلك إصلاحه قليل القيمة عديم النفع .

على أن مُغالاتَه فى حب الواقع المُحَسّ ، وتجافيه كل التجافى عن السير فى طرق الخيال ، ساقاه إلى الرضى بكثير من عادات الأمم اليونانية ومذاهبها التى أبلاها الزمن وأخلق ديباجتيها ، بل دفعاه إلى الانتصار لهذه المذاهب والعادات ، والعمل على تأييدها بالأدلة الفلسفية والحجج العقلية . فقد أباح الرق وجهر بمشروعيته ، فى حين أن كثيرين من أهل زمنه قد أنكروه وحاربوه ورأوه أمراً غير طبعى ، ذاهبين إلى أن الناس جميعًا قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

كذلك أجاز الإجهاض ، وأباح وأد الأطفال الضعاف والمشوَّهين ، وأنزل البرابرة الذين يسكنون الجزر اليونانية منزلة دنيئة لا تليق بشرف الإنسان ، فحكم أنهم لا يصلحون للحرية ولا ينفعون إلاّ خدمًا أو عبيداً لسادتهم اليونانيين .

ومما أُخذ عليه أيضًا ، حِرمانهُ الصُّنَّاعَ التربية والاشتراك فى سياسة البلاد وحكمها،

محتجًّا بأنهم يُنفقون جميع أوقاتهم فى مزاولة أعمالهم الصناعيـة ، وأنه ليس لديهم من الفراغ ما يستطيعون به تحصيل الفضيلة أو تأهيل أنفسهم للقيام بالأعمال العامة .

ومن معايب نظامه أنّه لا يرى للنساء حقّاً فى التربية العلمية ، بل لا يراهن أهلاً للتربية مطلقًا ، اللهم إلاّ فيما يختص بتدبير المنازل وأعمالها ، لأنهن خَلْقٌ يختلف فى قواه الجثمانية والعقلية عن الرجال . لهذا لم يكن لنظمه فى السياسة والتربية من الأثر فى إصلاح الأحوال ، أكثر ما كان لنظم أستاذه أفلاطون .

ارسطوطاليس وتأثير آرائه فى العالم

لم تكن لآراء أرسطوطاليس وأعماله أيامَ حياته ولا بعد موته مباشرةً من أثر يذكر ، فلم تُحدث رسائله ولا كتبه تغييراً ما فى الحياة الاجتماعية ، ولم يكن لمدرسة المشائين التى أنشأها إلاّ تأثير ضئيل فى توسيع فلسفته وتهذيب علومه . وجملة ما قام به طلاب هذه المدرسة من بعده ، أنهم جمعوا مؤلفاتِه وشرحوا ما يحتاج منها إلى الشرح ، وكوّنوا أسفاراً كاملة من تلك الصحف المتفرقة التى كتبها ولم يوفق إلى ضمها أو نَظْمِها فى كتاب . ولما تم لهم هذا العمل ، خاف رئيس المدرسة أن تعتدىَ يدٌ أثيمة على هذه الكتب النفيسة ، فنقلها من موطنها إلى بلاد الأناضول حيث دفنها هناك فى نفق من الأنفاق ، فظلت فيه نحواً من قرنين لا يُعْلَمُ من أمرها شىء ، ثم اهتدى الناس إليها فاستخرجوها ونقلوا جميعها إلى مكتبة الإسكندرية ، ومن الإسكندرية وَجَدَتْ طريقها إلى رومة .

على أن آراء هذا الفيلسوف لم يُقَدَّر لهـا أن تبقى مدى الدهر قليلة الأثر عديمة الإنتاج . فهى كبعض البذور التى تُبْذَر فى الأرض فتمكث أمداً طويلاً قبل أن تنبت وتنمو ، ولكنها متى ابتدأت نُمُوَّها استمرت فيه ، وتحولت إلى أشجار عظيمة باسقة الأغصان طويلة الأعمار ؛ أما البذور السريعة الإنبات ، فإنها أصغر جسماً وأقصر عمراً . لذلك لم يكن عجباً أن رأينا كتبه ورسائله بعد غفلة الناس عنها أعواماً طويلة ، قد أصبحت قِبلة الآمال ، يستنسخها الطلاب ويتهافت عليها العلماء والفلاسفة .

كذلك ليس بغريب أن تَنَبَّه الباحثون والمنقِّبون إلى طريقته الاستقرائية التى وضعها وهذب أصولها فقَدَرُوها حق قدرها، وعرفوا ما لها من الأثر الجليل فى تقديم المدنية وترقية الحضارة .

تنبه الناس إلى ما لهذه الفلسفة العالية من القيمة الجليلة، فاحتفظوا بها وأحلوها من أنفسهم منزلة سامية، وقد بقيت إلى القرن الخامس عشر بعد الميلاد، وهى أعز فلسفة لدى العلماء والمفكرين، حتى لقد جعلها الناس فى القرون المتوسطة أساساً لكل دراسة علمية كاملة . وقد كان العرب أسبق الأمم إلى دراسة هذه الفلسفة، فترجموا كتبها فى أيام الدولة العباسية وأقبل علماؤهم ومفكروهم على مطالعتها والبحث فيها، ولم يتعد ذلك فى بدء الأمر بغداد، ولكن سرعان ما سرت منها إلى جميع الممالك الغربية بما فى ذلك الأندلس، ثم انتشرت بعدُ فى الممالك الأوربية الغربية .

ومن آثار أرسطوطاليس الخالدة علمُ المنطق، فقد وضع أصوله وهذب قوانينه، وبلغ به غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد، ولا مذهب لذى إحسان . مضت القرون والأجيال الطويلة على هذا العلم، وهو كما تركه واضعه لم يَزِد عليه العلماء شيئًا مذكوراً .

ومن أياديه التى يَعْرِف فضلها طلابُ العلم، تلك الألفاظ الاصطلاحية التى وضعها واستعملها فى معانى علميـة، فَسهُل بها ترتيب العلم وتحصيله، فمن ذلك كلمات الصورة والهيولى، والأوساط والأطراف، والعلل والمعلولات، والقوة والباعث، والقاعـدة والقانون، وغيرها كثير .

كذلك من آثاره الخالدة، الطريقـة الاستقرائية الجديدة التى أساسها المشاهدة والمعاينة، والتى استعان بها على وضع كثير من العلوم الحديثة كعلم وظائف الأعضاء وعلم الآلات وعلم الطبيعة وعلم الحياة، وله فى جميع هـذه العلوم رسائل ومقالات مطولة ممتعة .

خيبة الفلاسفة وفوز السفسطائيين

كانت آراء أرسطوطاليس ومبادئه أكثر تنسيقًا وأقرب إلى الوجهة العملية من آراء سقراط وأفلاطون، ولكنه مع ذلك لم يكن بأنجح منهما فى التوفيق بين النظم القديمة

التى أَلِفَها الناس و بين تلك النهضة الجديدة التى قامت لإنهاض الفرد وتعزيز حريته الشخصية وتقديم منفعته على منفعة الجماعة . فخاب بذلك كل سعى قُصِدَ به تنظيمُ الحركة الفردية الجديدة والسيرُ بها فى طريق الاعتدال .

هكذا ذهبت المساعى التى بذلها الفلاسفة فى التوفيق سدى . وسَدَرَ السفسطائيون فى غُلَوائهم ، وتمشت حركتهم الجديدة فى طريقها ، وجدَّت فى سيرها مُسْرعةً ، ولم تَجِدْ من العقبات ما حال بينها و بين الانتشار فى طول البلاد وعرضها . وقد كان من نتائج هذه الحركة أن ازدرى الناس قديمَهم فتركوا ما كان عليه آباؤهم من أدب ودين ، وعمدوا إلى العقل فى كل شىء ، فناء ذلك بالعامة منهم ، فلم يستطيعوا أن يدركوا تلك الآداب الجديدة التى دعا إليها العقل ، وأريد بها أن تحل محل القديم .

كان هذا إلى فساد السياسة والحياة الاجتماعية فى المدن الإغريقية نذيرَ السوء وأصلَ البلاء الذى حل بالبلاد ؛ فإنها ما لبثت بعد هذه الحركة أن ذهبت ريحها ، وانحلت روابطها ، واجترأت عليها الدول المجاورة ، فغزاها الإسكندر المقدونى وهزم جيوشها وثلّ عروشها وضمها إلى دولته وأدخل أهلها فى طاعته . وهكذا مصيرُ كلِّ أمة تستهين بمجد آبائها الأقدمين ، ولا تعتصم بقوة من الأخلاق والدين .

التربية اليونانية فى عصرها الأخير

يَمتدُّ هذا العصر من منتصف القرن الثالث قبل الميلاد إلى العصر الذى انتشر فيه الدين المسيحى بين الناس . وقد كان هذا العصر عصرَ انحلال سياسىٍّ لليونانيين ، ولكنه كان من جهة أخرى عصرَ تكوين وارتقاء ، فقد وصلت فيه الأمة اليونانية إلى أعلى درجات المجد والحضارة ، و بلغت فيه أقصى ما كان مستطاعًا بلوغهُ من علم وفلسفة وأدب . ويمتاز هذا العصر من وجهة التربية بأمور ثلاثة : سيادة المصلحة الفردية ، وانتشار العلوم والمعارف ، وظهور أنواع جديدة من المدارس والمعاهد العلمية .

(١) سيادة المصلحة الفردية

فى هذا العصر سادت المصلحة الفردية مصلحةَ الجماعة ؛ فقد أخذ الفلاسفة يعتبرون الفرد مستقلاً بذاته قائمًا بنفسه ، ولا ينظرون إليه من جهة أنهُ جزء من الجماعة وعضو من أعضائهـا ، وأصبحوا لا يَشْغَلون أنفسهم بالتوفيق بين المصلحتين الفردية والاجتماعية كما كانوا يفعلون أوَّلاً ، وإنما قصروا جهدهم على البحث فى طرق الحياة وتوفير السعادة للأفراد ، وصاروا يَعُدُّون التربية وسيلة لإنماء مواهب الفرد وإسعاده وإطلاق حريته ، من غير أن ينظروا فى ذلك إلى علاقته بإخوانه وبنى نوعه . ولا عجب : فقد كان القائمون بوضع نظريات الحياة والتربية فى هذه العصور طائفةً من الفلاسفة الذين عاشوا فى عُزلة عن الناس ، بعيدين عن مظاهر الحياة الاجتماعية .

(٢) انتشار العلوم والمعارف

ذاعت فى هذا العصر المعارف الإغريقية ، وانتشرت فى جميع البقاع المعروفة فى العالم . وقد كان للإسكندر المقدونى الفضلُ الأكبر فى ذلك ، فإنهُ مهد السبيل لهذه الحركة بغزوه البلادَ الشرقية وفتحه إياها ، وتهيئته عقولَ أهليها لقبول الحضارة الإغريقية . ولذلك لم يمض قرن كامل على موته حتى امتلأت البلاد المغزُوَّةُ بالعلوم والمعارف اليونانية ، وأصبحت عادات الشرقيين وأحوالُهم الاجتماعيـة وطرقُهم المعيشية مصبوغة بصبغة يونانية محضة ، وصارت المدن الشرقية جميعها تموج بالمعاهد الإغريقية مَوْجًا ، فامتلأت بالمدارس والحمامات ومسارح التمثيل والمجامع العلمية وأماكن الرياضة البدنية ، وكُلُّها على أسلوب إغريقى محض . وإليك مدينة الإسكندرية التى أسسها الإسكندر فى مصر ، فإنها أحسن مثل للمدن الشرقية الزاخرة بالعلوم والآداب ومعاهد التربية الإغريقية . كان فيها أيام الفتح الإسلامي بعد نحو ألف سنة من تأسيسها ، أربعمائة مسرح للتمثيل ، وأربعةُ آلاف من القصور المُشَيَّدة ، ومثل هذا العدد من الحمامات ، ودارُ تحف عظيمة ، ومكتبةٌ فيها سبعمائة ألف كتاب . وقد أصبح العلم فى هذا العصر عامًّا شائعًا بين الناس جميعًا ، لا تستأثر بهِ فئة ، ولا يختص به مكان .

(٣) المدارس اليونانية الجديدة

لما سادت المصلحةُ الفردية مصلحةَ الجماعة فى أغراض التربية ، وأصبح العلم عاماً غير مقصور على فئة ولا مقيد بمكان ، مست الحاجة إلى أنواع جديدة من المعاهد العلمية تخالف الأنواع القديمة، فأُنشِئت مدارس الفلسفة . ومدارس البيان . والجامعات . وإليك كلمة عن كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة .

(١) مدارس الفلسفة : لم يكن لهذه المدارس عنـاية بغير المسائل النظرية والمباحث العقلية ، ولم يكن لها فى يوم من الأيام اهتمام يذكر بمصلحة الجماعة وترقية أحوال الأمة ، ولا بإعداد طلابها للحياة العملية الخارجة ، وإنما كان جل همها مقصوراً على ترقية مدارك الفرد والإعلاء من شأن حياته العقلية . وبذلك ترى كيف كانت وجهتها فردية محضة ، تراعى مصلحة الفرد وتهمل مصلحة الجماعة إهمالاً .

وأصل هذه المدارس أن أفلاطون وأرسطوطاليس وغيرَهما من الفلاسفة الأقدمين جمعوا حولهم طوائف من الطلاب والأتباع يلقنونهم الحكمة ويعلمونهم الفلسفة ، ولم يمض غير قليل حتى تكونت من هذه الطوائف مدارس ذات نظم ثابتة ، لكل فيلسوف مدرسته وأتباعه . وقد كان الفلاسفة يُلْقُون دروسهم أولاً فى الملاعب اليونانية العامة ثم اتخذوا لهم فيما بَعْدُ أماكنَ خاصةً متصلة بهذه الملاعب ، فأنشأ أفلاطون فى بساتينه الخاصة مدرسته المسماة (أقاذيميا) أو المجمع العلمى . ومن مبادئه التى أخذ تلاميذه بها أن الوصول إلى العلوم والمعارف لا يكون بالنظر والاستنباط ، بل بالرياضة والفِكَرِ اللطيفة ، فَتُشْرق المطالب العرفانية على النفوس إشراقاً . وقد تبعه فى ذلك أتباع كثيرون ، وهم المسمون بالإشراقيين .

وقد اتخذ أرسطوطاليس مدرسته فى مكان خاص من الملعب اليونانى المسمى « لَيْسِيُوم » ويعرف أتباعه بالمشَّائين ، لأنه كان يعلمهم وهم مشاة .

ومن أصحاب المدارس المشهورين بالعلم والفلسفة زينو (٣٤٠ — ٢٦٠ ق م) . وقد اتخذ مدرسته فى رُواق هيكل أثينا ، ويعرف أتباعه بالرُّواقيين نسبة إلى المكان

الذى كان يعلم فيه . ومن آرائه أن كمال الإنسان فى عفته وقناعته وإعراضه عن متاع هـذه الحياة . ومنهم إبيتُور (٣٤١ - ٢٧٠ ق م) . وقد أسس مدرسته فى حديقته الخاصة وتسمى بمدرسة الإبيتوريين . ومن مبادئه فى الفلسفة أن اللذة هى غاية الإنسان من الحياة . وهناك مدارس أخرى كثيرة للفلسفة ، ولكنها أقل من هذه فى الصيت والشهرة . وقد كان لجميعها أغراض دينية تحافظ عليها ، فوق ما كان لها من العناية بترقية الحياة العقلية للأفراد .

عاشت هذه المدارس طويلاً إلا أنها فقدت كثيراً من قيمتها بعد موت أصحابها ، فقد قلت فيها حركة البحث ، وَرَكَدَت ريح الفكر ، وأصبح هَمُّ الرؤساء فيها لا يتعدى تقرير مبادئ الفلاسفة المؤسسين ، ولم يقم واحد منهم بعمل يذكر فى سبيل الانتفاع بآراء الحكماء واستخدامها فى الوصول إلى مباحث أخرى جديدة ، بل كانت كل جهودهم موجهة إلى تقريظ الفلسفة القديمة ، والتعليق عليها بما يظهر فضلها ورجحانَ العقول التى أنضجتها ، على أن مدرسة أرسطوطاليس فوق تقصيرها فى الوصول إلى بحوث علمية جديدة ، لم تستطع الاحتفاظ بآراء أستاذها الأكبر ، ولم تنجح فى إحيائهـا ونشرها بين الناس .

بهذا نرى أن التعليم فى هذه المدارس قد صار بعد موت أصحابها صُوريا سقيما يشبه تعليم السفسطائيين ، لا تأثير له فى تكوين العقول ولا إرهاف المدارك ، ولا يصل بأصحابه إلى استنباط أصول جديدة أو آراء حديثة ؛ وإنما كان محض تعلق بآراء الفلاسفة والحكماء الأقدمين .

(ب) مدارس البيان : أُنشئت مدارس البيان لتعليم الخطابة والمنطق الفصيح واقتباس المعارف العصرية التى تفيد فى الحياة العملية الخارجة . وقد كان هَمُّ القائمين بهـذه المدارس أن يُخرجوا رجالاً بصيرين بأحوال الحياة ، قادرين على السير بنجاح فى الأعمال الدنيوية . ولذلك لم يُعْنوا بتدريس الفلسفة ولا بتلقين الجاف النظرى من مسائل العلوم والفنون .

ومن أقدم هذه المدارس وأبعدها صيتًا وأكبرها تأثيراً ، مدرسة إسْقراط صاحب الباع الطويل فى الفصاحة والبلاغة . ولد هذا الخطيب سنة ٤٣٦ وتوفى سنة ٣٣٨ ق م وأخذ عن سقراط ، إلا أنه مع ذلك كان قليل الإيمان بالفلسفة ، ضعيف الثقة فى نفعها وتأثيرها فى تكوين رجال مفكرين قادرين على خدمة الوطن والضربِ فى سبيل الحياة الوعرة المسالك .

لهذا أنشأ مدرسته ، وأخذ يُعِدُّ فيها شبان الأثينيين للحياة العملية العامة بتمرينهم على الخطابة ، وأَخْذِهم بصناعة البيان ، وتبصيرهم بأحوال السياسة والاجتماع السائدة فى العصر . ومن مبادئه أن التربية العالية يجب أن تكون أدبية لغوية لاغير . وقد كان له فضل كبير فى خدمة أثينا ، وجعلها مركزاً عاماً للتعليم الأدبى يقصده المتأدبون والطلاب من جميع الأصقاع .

ابتدأت مدارس البيان قوية ، وكان أثرها فى تكوين الرجال عظيما ، إلا أنها سرعان ما ذهبت بهجتها ، وانحط شأن التعليم فيها ، وأصبحت أساليبها فى التدريس سقيمة قليلة الأثر فى إيقاظ العقول وإرهاف المدارك . وذلك أن المتأخرين من علماء الفصاحة ورجال البيان الذين تَولَّوْا شئونها ، أرادوا أن يتخذوا طريقًا أقصر لتعليم تلاميذهم الخطابة والنطق الفصيح ، وقصدوا أن يتلمسوا وسائل أسرع لإعداد الطلاب لحياتهم العملية ، فأخذوا يجمعون المسائل العلمية التى كثر بحث الناس فيها ، من غير أن يُعْنَوْا بما بينها من الصلة والارتباط ، ثم يلقنونها تلاميذهم تلقينا صوريا . وفوق ذلك عمدوا إلى إنشاء الخطب والمحاورات ، وصوغ الحكم والمواعظ والأمثال ، وطلبوا إلى تلاميذهم أن يحفظوها عن ظهر قلب ، حتى إذا أتيحت لهم الفرص المناسبة ، ألقوها على أنها من إنشائهم وثمار أفكارهم .

هكذا انحط التعليم فى هـذه المدارس ، وأصبح أمره لا يزيد على تلقين مسائل متفرقة تافهة وحفظ بعضٍ من الخطب والحكم والمحاورات المنشأة فى شئون عصرية ، وموضوعات شائقة ، وعلى الرغم من هذا الانحطاط ، عاشت هذه المدارس قرونا عدة ، وهي مُحَبَّبَة إلى الشعب ، منافسة لمدارس الفلسفة العالية .

(ح) الجامعات : الجامعات اليونانية التى أنشئت لدراسة الفلسفة والآداب والبحث العلمى كثيرة منتشرة فى مشارق الارض ومغاربها ، ولكن المشهور منها ثنتان: جامعة أثينا ، وجامعة الإسكندرية . وإليك كلمة فى نشأة كل واحدة منهما .

جامعة أثينا : كانت التربية الأثينية القديمة فى دور الشباب عملية محضة كما قدمنا . ولما اتجهت الرغبة فى العصور الأخيرة إلى تعميم دراسة الفلسفة والآداب ، أخذت التربية فى هذا الدور تتغير تدريجًا ليتمكن الشبان الأثينيون من دراسة بعض المناهج الفلسفية والأدبية فى الفترات التى يخلون فيها من الواجبات العملية . وقد وصل هذا التغيير فى أيام الفتح المقدونى إلى غاية واسعة ، إذ جعلت مدة التمرين البدنى سنة واحدة بدل سنتين ، ولم يمض على ذلك غير قليل حتى غدت التربية البدنية فى دور الشباب اختيارية والتربية العقلية إجبارية . وبذلك امتزجت التربيتان البدنية والعقلية ، وكان هذا الامتزاج أساس تكوين المدرسة الجامعة فى أثينا .

أنشىء ذلك المعهد الكبير وألزم الشبان الأثينيون جميعًا أن يذهبوا اليه ، ويتلقوا دروس الفلسفة والبيان فيه ، فذاعت شهرته ، وانتشر صيته ، ونسل إليه الطلاب من جميع الاصقاع .

ولما كان اكثر الطلاب الغرباء يأتون إلى هذا المعهد قبل إعداد أنفسهم له إعداداً كافيًا ، مست الحاجة إلى معلمين ومساعدين كثيرين يتولون إعداد هذه الفئة وتأهيلها للدخول فيه . فكثر عدد هؤلاء المعلمين فى المدينة ، وأخذوا جميعًا يعملون لغاية واحدة ، إلا أن منهم من كان يشتغل بالتعليم والإعداد مستقلاً ، ومنهم من كان متصلاً بالجامعة معدوداً من رجالها العاملين .

كان الأساتذة فى هذه الجامعة قليلين لا يتجاوز عددهم اثنى عشر أستاذاً ، إلا أنهُ كان بجانب هذا العدد القليل طائفة كبيرة من المعلمين والمساعدين تشتغل بأعمال التدريس ، وتتقاضى رواتبها من أجور التعليم التى يدفعها الطلاب . وكان بها أيضًا غير

هؤلاء عدد وفير من المربين والمهذّبين الذين كانوا يصحبون أولاد الطبقة الموسرة ليراقبوا سيرهم وسلوكهم ، و يساعدوهم فى أعمالهم ودروسهم .

ولقياصرة الروم فضل أى فضل فى تشجيع هذه الجامعة ومساعدتها بالمال ، وجعلها أكبر مركزٍ للعلوم والفنون فى جميع أرجاء المملكة الرومية . ومن هؤلاء القياصرة « فِسْپَازْيان » (١٩ – ٧٩ بعد الميلاد) و « هادريان » (١١٧ – ١٣٨ م) . ثم « الأَنْطُونَيْنِيُّون » (١٣٨ – ١٨٠ م) .

ولما كانت هذه الجامعة مهد العلوم الأدبية الإغريقية ، ومقر العقائد الوثنية القديمة ، لم يكن عجيباً أن كانت مَثَار الفتن ومنبع القلاقل التى قامت فى وجوه القياصرة الداعين إلى الدين المسيحى ، والعاملين على نشره بين الناس ، إلا أنها لم تقو على هذه المناوأة طويلاً . فقد نصب لها هؤلاء القياصرة واحداً بعد آخر ، وما زالوا بها حتى كسروا شوكتها ، وأضعفوا قوتها ، وأطفئوا فيها ذلك النور الذى استضاء به العالم قروناً وأجيالاً . وقد تم ذلك على يد القيصر جَسْتِنْيان سنة ٥٢٩ م .

جامعة الإسكندرية : فى أواسط القرن الثالث بعد الميلاد ذاعت شهرة الإسكندرية وانتشر صيتها فى الآفاق ، وانتقل إليها ما كان لأثينا من المنزلة العالية والمكانة السامية فى العلوم والآداب ، وغدت جامعتها أعظم جامعة وأكبر معهد علمى فى العالم كله .

والفضل فى تأسيس هذه الجامعة يرجع إلى ملوك البطالسة الذين كانوا يحكمون مصر فى تلك الأيام ، والذين كان لهم شغف كبير بترقية العلوم والآداب . فقد أنشئوا فى هذه المدينة دار كتب عظيمة ، ودار تحف فاخرة ، وجمعوا فى الأولى ما استطاعوا جمعه من المنسوخات الإغريقية ، وما وصلت اليه أيديهم من الأسفار المصرية والشرقية القديمة .

وعلى هاتين الدارين قامت جامعة الإسكندرية التى صارت فى عهد يسير كعبة للعلوم ، يؤمها العلماء والفلاسفة والمتأدبون ، يدرسون فيها و يشتغلون بالبحث والتأليف

مستعينين بما هنالك من كتب وآثار. وقد بالغ ملوك البطالسة فى تشجيع النازحين إليها من أهل العلم ورجال الأدب، فأغدقوا عليهم النعم وأكرموهم غاية الإكرام. فكان ذلك من أكبر الأسباب التى ساعدت فى نجاح هذه الجامعة وانتشار ذكرها فى جميع أنحاء العالم المتمدين.

وقد قام العلماء فى هذه الجامعة بأعمال علمية عظيمة، ووصلوا إلى نتائج مدهشة، ففيها كوَّن بطليموس الجغرافى نظريته التى تثبت أن الأرض مركز الكون جميعه، والتى بقيت عقيدةً للعلماء يتمسكون بها إلى أن جاء كُوبَرْنيق الالمانى (١٤٧٣ - ١٥٤٣) فوصل فى بحثه الفلكى إلى أن الأرض تدور حول الشمس، وأن الشمس هى المحور الذى تدور حوله الكواكب التى منها الأرض. كذلك فى هذه الجامعة كشف أرشميدس السّيراقوسى كثيراً من أسرار الطبيعة، ووضع قوانينه الطبعية المعروفة بين طلاب العلم فى هذه الأيام. وفيها أيضًا نبغ أقليدس، وهذب علم الهندسة ووضع فيه كتابه المشهور.

بقيت هذه الجامعة زاهية زاهرة بالعلوم إلى أن فتح المسلمون مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ م، فنضب منها معين العلم، وركدت فيها ريح الآداب، وأخذت الجهود والأعمال العلمية والفلسفية تهجر مدينة الاسكندرية وتبتغى موطنًا آخر، فاستوطنت البلاد العربية ولا سيما قرطبة وبغداد.

ومما يؤسف له احتراق دار الكتب، وحرمان العالم فوائدها الجليلة. وقد اختلف المؤرخون فيمن أحرقها، فمن قائل إنه يوليوس قيصر أحرقها مع أسطوله يوم بغته المصريون على غير استعداد. ومن قائل إنه عمرو بن العاص أحرقها بأمر من الخليفة عمر رضى الله عنه. ومما قيل فى ذلك أن عَمْرًا أمر أن تتخذ أسفار هذه الدار وَقُودًا لحمامات الاسكندرية، وعِدَّتُها إذ ذاك أربعة آلاف حمام، فكفتها ستة شهور كاملة، ولكن كبار المؤرخين ينكرون صحة هذا الرأى.

امتزاج التربية اليونانية بالتربية الرومية

قبل استيلاء الروم على بلاد الإغريق كان الاتصال بين الأمتين وثيقًا، والاختلاط عظيمًا، ولذا تأثر الروم بالحضارة الإغريقية، وظهر ذلك بأجلى مظاهره فى التربية وأساليبها؛ فقد كانت ذات صبغة إغريقية واضحة.

ولما بسط الروم سيادتهم على بلاد الإغريق سنة ١٤٦ م، أصبح تاريخ الحضارة الإغريقية ممتزجًا بتاريخ الحضارة الرومية امتزاجًا يصعب معه تمييز أحد التاريخين عن الآخر. وقد كان ذلك من العوامل التى زادت فى انتشار العلوم والفنون الإغريقية وتَعَلُّق الناس بها، فانتشرت مدارس الفلسفة ومدارس البيان فى رومة، وامتلأت جامعتا أثينا والإسكندرية بالشبان الرومين، وأخذ قياصرة الروم يمدون هاتين الجامعتين بالمساعدات المالية، ويشجعون ما يجرى فيها من الأعمال والمباحث الفلسفية والعلمية على نحو ما أسلفنا